أولادنا

جزيرة الكنز



دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

جَزِيرَةُ الكنز

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جزيرة الكنز .- ط ٨٠ – القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦
١٥٢ ص ، ٢٠ سم – (أولادنا، ١٢).
تدمك ٥-٥٥-٧٠-٠٢-٩٧٧
١ قصص الأطفال
٢-القصص العربية

ديوى ٨١٢,٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢٤٦٥٦ — ٧/٢٠٠٦/٩٧

أولادنا

١٢

جَزِيرَة الكَنْز

الطبعة الثامنة

دار المعارف

الرســـوم بريشـــة الفنانة شهر زاد

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg



القسم الأول

القرصان العجوز

١

طُلب إلىّ أن أروى قصة جزيرة الكنز، وهى قصةٌ طريفة اشتركت أنا فى حوادثها من البداية إلى النهاية، وسأرويها بحذافيرها ولن أغفل إلا ذكر موقع تلك الجزيرة، فقد يكون فيها كنوزٌ جديدة تنتظر من يكشف عنها ويستولى بها على ثروة ضخمة تجعله أغنى أغنياء العالم.

أكتب هذه القصة فى سنة ألفٍ وسبعمائة و . . . وتعود بى الذاكرة إلى الأيام التى كان لوالدى فيها فندقٌ صغير يستقبل النُّزلاء فى القرية التى

نعيش فيها ، ونكسب منه ما يفي بتكاليف الحياة .

أذكرُ ذلك اليوم الذي جاءنا فيه بحّار عجوز ، وطلب أن يستأجر غرفة في فندقنا ، وأذكرُ كذلك كيف اقترب من باب الفندق وهو يجرّ رجليه جرًّا ، ووراءه عربة يد تحمل صُنْدوق ثيابه . حدّقتُ فيه فإذا هو رجل فارعُ الطُّول ، أسمر اللون ، قويّ البِنْية ، تنحدر من رأسه جديلة شعرٍ وسخٍ وتصل إلى عنق صِدارٍ أزرق ملطّخ بالأقذار . وكانت يداه مشقّقتين ، وأظافرهما سوداً مكسّرة ، وكان على خدّه أثرٌ من ضربة سيف قديمة .

وأذكرُ أني رأيته يجيل الطَّرْف طويلا حول الفندق قبل أن يتخطّى عتبة الباب ، وأني سمعته ينشد في صوت خافت أغنيةً طالما أنشدها بعد ذلك وهذا مطلعها :

« كانوا عدداً من بحارة
جلسوا من فوق التّابوتِ . . .
ها ها ! ها ها ! ها ها ! ها ها ! »

ثم رأيته يقرع الباب بعصا كانت في يده ، ورأيت والدي يُهرَع إلى فتح الباب واستقبال الرّجل .

ووقع اختياره على غرفة في الطّبَقة العلْيا من الفندق ليستطيع منها أن يراقب السّفن الرّائحة والغادية . ولمّا سأله والدي عن اسمه بعد أن

أمر بنقل صندوقه إلى الغرفة، قال له هذا: « نادنى باسم القبطان » ثم رمى له ببعض قطع ذهبية وقال:

— « خذ هذا سلفاً، واطلب منى غيرها عندما يحين موعد الدفع ».

وكان الرجل يؤثر الهدوء والسكينة، وكان يقضى نهاره جائلا فى البقاع التى تحيط بالفندق، وفى يده منظار من النحاس، ثم يقضى مساءه فى زاوية من بهو الفندق قريباً من الموقد. وكان إذا وجه أحد إليه الخطاب لا يجيب ولا يريم، وإنما يصوب إلى المتحدث نظرات وحشية حادة، فتعود رواد الفندق ونزلاؤه أن يتركوه وشأنه، ولا يضايقوه بحديث ولا سؤال.

وكان من عادته فى كل مساء، عندما يعود من نزهته حول الفندق، أن يسأل: « هل مر بالقرية أحد من البحارة »؟ فظننا أول الأمر أنه يفضل صحبة واحد من مهنته، ولكننا لاحظنا عليه بعد ذلك أنه يتجنب البحارة والحديث معهم. فإذا اتفق أن عرج على فندقنا بحار فى طريقه إلى ميناء « برستول »، وجلس فى بهو الفندق، كان صاحبنا « القبطان » لا يدخل البهو قبل أن يتلصص من وراء فتحات الأستار، ويجيل النظر فى البحار الغريب.

ولقد أدركت أن الرجل يخشى رؤية بحار بعينه، فقد استدعانى يوماً ووعد بأن يمنحنى قطعة فضية فى رأس كل شهر، إذا أنا « فتحت

عينيّ وراقبت مجيء بحّار مقطوع الساق » . وكنت أنا إذ ذاك فى مستهل شبابى ، فانصرفتْ أوهامى إلى ذلك الرَّجل المقطوع السّاق ، حتى بتّ أراه فى أحلامى ، وكنت فى الليالى العابسة المشحونة بالبرق والرّعد والأمطار ، أتخيّله مقبلا علينا ، ويُلِحّ بى الخيال فأتصوّره تارةً رجلا مقطوع القدم ، وأتصوّره تارةً أخرى رجلاً مقطوع السّاق حتى الخصر ، وأتصوّره مرة ثالثة رجلا وحشيّ الخلقة وُلِد بساقٍ واحدة ورجلٍ واحدة ، يقفز بها قَفْزَ الأبالسة ، فيحملنى ذلك كلّه إلى كابوسٍ فظيع يلفّنى بالذُّعر والمخاوف .

والقبطان نفسه كان يبُثُّ الذُّعر فيمن حوله ما عداى أنا ، فقد ألِفْته وألِفَنى . وكان فى الليالى التى يُكثِرُ فيها من الشَّراب ، يتوسّط حلقة النُّزلاء ، ويقدّم لهم الشراب ، ويحدّثهم بأحاديث غريبة مثيرة ، ويغضَب أشد الغضب إذا طرح عليه أحدهم سؤالا ، أو إذا لم يطرح عليه أحدهم سؤالا . وكان يضطرّهم إلى الغناء معه تلك الأغنية العجيبة :

« كانوا عدداً من بحّارة . . . إلخ »

فكانوا يتسابقون فى الزّعْق والصُّراخ ليخفوا ما فى صدورهم من خوف ، وما فى عيونهم من استهزاء وسخرية ، وما كان القبطان يسمح لأحدهم بالانصراف قبل أن يدِبّ النُّعاس إلى جفنيه ، ويذهب إلى غرفته مترنّح الأعطاف متثاقل الخطوات .



قضى بيننا أسابيع وشهوراً ، فساءت حالنا فى الفندق لأن النُّزَلاء انصرفوا عنّا ، ولم يكن والدى يجرؤ على مطالبة القبطان بدفع ما عليه من أجر ، فإذا جازف يوماً ولمّح له بذلك ، كان القبطان يحدجه بنظرات مخيفة فيترك الغرفة لا يلوى على شىء . وأكبر ظنّى أن هذه الحال قد عجّلت فى موته .

وما رأيت القبطان تلقّى رسالة ولا كتب رسالة ، ولا رآه أحد يفتح صندوقه فى يوم من الأيّام. والويل لمن يجسُر أن يسأله عن ذلك، فإنّما كان القبطان رجلاً مخوفاً يتحاشى الناس شرّه ومغبّة غضبه .

على أن الرّهبة التى كان يلقيها فى القلوب قُدِّر لها أن تتحطّم جوانبها على يد طبيب القرية الدكتور « ليفزى » فقد جاءنا الطبيب يوماً يعود والدى المسَجّى على فراش المرض، وبعد أن فحصه وأوصى والدتى بما يلزم أن تقوم به فى سبيل المريض ، نزل إلى بهو الفندق ليستريح قليلا قبل أن يعود إلى منزله ، وكانت والدتى تصحَبه وهو يحدّثها عن حال أبى الخطِرة ، وعن الأدوية التى قد تسكّن آلامه وأوجاعه ، فما كادا يدخلان البهو حتى رأيا القبطان يضرب بقبضته على المنضدة وهو يصيح بصوت يجلجل كالرّعد : « سكوت » . فلزم الحاضرون الصّمت ، وأقفلوا شفاههم إلا الطّبيب فقد استمرّ يحدّث والدتى و« الغليون » فى فه ، فأتبع القبطان ضربته الأولى بضربةٍ ثانية على المنضدة ووجّه

إلى الطّبيب مجموعة من الشتائم القذرة ثم أخرج من جيبه سيكّيناً مطويّة ففتحها ، ثم أمسكها بقبضة يده وقال :

— « إن لم تسكت فسأسمّرك بهذه السكّين على الحائط » .

فلم يتحرّك الطبيب ولا خاف من التّهديد وقال :

— « إذا لم تطو هذه السكّين حكمتَ على نفسك بالشّنق، ولسوف أستصدر هذا الحكم من محكمة الجنايات فى أول جلسة تعقدها فى هذه القرية ، واعلم أنى لست طبيباً فقط بل أنا أيضاً عضو من أعضاء هذه المحكمة » . فخيّم على البهو صمتٌ رهيب ، وأعاد القبطان سكّينه إلى جيبه ، وارتمى على مقعده وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة .

ثم أتمّ الطّبيب حديثه مع والدى وحيّا الحاضرين وانصرف .





٢

لم نرَ القبطان بعد تلك الحادثة إلا رزيناً هادئاً ، وكان الشتاء القارس قد بدأ يفعل فعله ، فاشتدت وطأة الداء على والدى ، وقطعنا الأمل من شفائه ، فاضطلعت أنا ووالدتى بشؤون الفندق ، ولم تكن أعمالنا الكثيرة لتسمح لنا بالاهتمام بنزيلنا الغريب الأطوار .

وفى صباح يوم من أيام شهر يناير الباردة ، استيقظ القبطان مبكراً على خلاف عادته ، وخرج من الفندق متجهاً إلى الشاطئ وفى يده منظاره النحاسىّ ، ومضيت أنا أعدّ طعام الإفطار للنُّزلاء ، وبينما كنت منهمكاً فى عملى فُتح باب غرفة المائدة ودخل منه رجل لم أره قطُّ قبل ذلك

اليوم ، وكان رجلا شاحب اللون ، قذر المظهر ، ينقص يده اليسرى إصبعان ، فجلس إلى إحدى الموائد ودعانى إليه وقال :

— « أهذه هى مائدة صديق "بيل" ؟ » فقلت :

— « لا أعرف يا سيّدى صديقك "بيل" ، فهذه المائدة هى مائدة نزيل من نزلاء الفندق ندعوه بالقبطان » فقال :

— « وهل هو هنا ؟ » فقلت :

— « ذهب يتنزّه فى بعض الأنحاء » فقال :

— « لا بأس ! سأنتظره » .

ولاحت منه التفاتة إلى باب الفندق فرأى القبطان عائداً إليه فقال لى :

— « ها هو ذا صديق "بيل" عائداً من نزهته ، وها هو ذا منظاره النحاسى تحت إبطه . . . تعال معى نختبئ فى الغرفة المجاورة لنفاجئه مفاجأة لطيفة » .

وقبل أن أجيبه عن اقتراحه ، دفعنى أمامه إلى الغرفة المجاورة وأبقى بابها مفتوحاً ليسهل عليه النّظر ، وخيّل إلىّ أن الرّجل كانت تساوره المخاوف مثلما كانت تساورنى ، فقد وضع يده على مقبض خنْجَره وأخذ يلاعبه فى غمده دون أن يجرّده .

دخل القبطان إلى غرفة الطّعام ، وجلس إلى مائدته وظهره إلينا ، فتقدّم الرّجل الغريب حتى اقترب منه وقال بصوت فيه هدوء وفيه قسوة :

– « " بيل " ! »

فالتفت القبطان إلى مصدر الصّوت ، فتجهّم وجهه وغارت عيناه كمن يرى شبحاً من الأشباح ، أو كمن يرى الشيطان، فعزّ عليّ أن أرى ذلك الشيخ العجوز على مثل تلك الحال. وسمعت الغريب يقول له :

– « إنك تعرفنى جيّداً يا "بيل" وتعرف زميلك القديم. أليس كذلك يا "بيل" ؟ »

فتنفس القبطان فى ضيقٍ وصعوبة وقال :

– « "الكلب الأسود" ! » فقال الغريب :

– « "الكلب الأسود" بعينه جاء يزور صديقه القديم "بيل" . . . لقد مر على فراقنا زمن طويل . . . لم أرك من يوم فقدت إصبعىّ . . . أليس كذلك يا "بيل" ؟ » فقال القبطان :

– « حسن . . . حسن . . . لقد بحثت عنى، حتى وجدتنى فماذا تريد ؟ » فقال « الكلب الأسود » – وهذا هو الاسم الذى أطلقه القبطان عليه :

– « إنك لتضع الأمور فى نصابها وتعفينى من المقدّمات ، وهذا شىء حسن » .

ثم التفت إلىّ وقال :

– « اتركنا يا ولدى قليلا وحدنا ، فإنى مشتاق جدّاً إلى صديق » .

فتركتهما وخرجت وبقيت وراء الباب أتنصّت إلى حديثهما، فلم يطرق مسمعي منه شيء مفهوم ، فقد بدأ الحديث بينهما خافتاً ، وأخذ يعلو مصحوباً بالشّتائم والسِّباب، ثم تبعه انقلاب المائدة ودويّ الكراسي ، ولحق بذلك كلّه صليل الخناجر وصيحة ألم خرج على أثرها « الكلب الأسود » وأطلق ساقيه للريح ، وخرج القبطان وراءه وكاد يدركه ويُغمد الخنجر في ظهره ، غير أن قواه خانته فسقط والدّم ينزِف من جراحه نزْفاً شديداً .

وكانت والدتي وبقيّة النُّزلاء قد هُرعوا إلينا على أصوات تلك الضجّة ، واتّفق أيضاً أن حضر الطَّبيب ليعود والدي ، فتعاونّا جميعاً على نقل القبطان إلى سريره ، واهتمّ الطبيب بجراحه فضمّدها .





٣

دخلت عند الظهر على القبطان أحمل إليه بعض الشراب المنعش ، فرأيته خائر القوى ضيّق النّفس فبادرنى قائلا :

— « أشكرك يا "جم" ، انظر إلى أصابعى كيف ترتجف . . . أوّاه ما هذه الأشباح؟ إنى أرى فى الزّاوية "فلنت" العجوز . . . إنى أراه وراءك يا "جم" . . . هناك . . . هناك . . . » .

وسكت قليلا ثم أردف :

— « أرأيت يا "جم" ذلك البحّار الذى جاءنا فى هذا الصباح ؟ »

فقلت :

ـــ « "الكلب الأسود"؟ » فقال :

ـــ « أجل . . . "الكلب الأسود" . . . إنه رجل شرّير ، والذين أطلقوه فى أثرى هم شرٌّ منه . . . يجب أن أغادر هذا المكان ولكن كيف السبيل إلى ذلك فإنى لا أستطيع حَراكاً . . . هؤلاء الذين بعثوا إلىّ "الكلب الأسود" يغتالنى ربّما رمونى "بالعلامة السوداء" فتذكّر يا "جم" أن غرضهم هو الحصول على صُندوقى . . . فإذا جاءوا فاركب جوادك وسارع إلى الطّبيب . . . ذلك الطّبيب الأبله . . . وقل له ليجمع الرّجال ولينقضّ بهم على أعوان "فلنت" العجوز . . . كان "فلنت" القبطان وكنت أنا مساعده . . . وأنا الوحيد الذى أعرف الموضع . . . ذكره لى وهو يحتضر كما أحتضر أنا الآن . . . ولكن لا تتحرك قبل أن ترى أنهم رمونى "بالعلامة السوداء" أو ترى "الكلب الأسود" أو البحار المقطوع الساق يعود . . . » فقلت له :

ـــ « وما "العلامة السوداء"؟ » فقال :

ـــ « إنها إنذار . . . وسوف أخبرك إذا تلقّيته . . . كن يقظاً . . . إياك أن تغفل عن المراقبة . . . أقسم لك بشرفى لأقاسمنّك الكنز مناصفة » .

أثارت هذه الأسرار فضولى واهتمامى ، غير أن موت والدى فى المساء نفسه صرفنى عن التفكير فى هذه الأمور .

وفى اليوم الذى تلا تشييع جنازة والدى ، كنت بُعَيْدَ الظهر واقفاً

عند باب الفندق حزين الفؤاد على أبى ، أفكر فيه وفى ساعاته الأخيرة ، فلمحت رجلا قادماً إلىّ على مهل ، فتبينته فإذا هو رجل أعمى يتحسس الطّريق بعصاه ، وتحجب عينيه وأنفه عصابة خضراء ، وهو محنىّ الظّهر من الضّعف أو من ثقل السّنين ، وكان يرتدى ثوب بحّار ، وعلى الأصح أسمال ثوب بحار ، فما وقعت عينى قطّ على رجل أرهب منه منظراً ، فلمّا صار على مقربة منّى رفع صوته وقال بلهجة رقيقة ناعمة :

— « أما من نفس كريمة تقول لهذا العاجز أين هو وفى أى بلد هو ؟ » فاقتربت منه وقلت :

— « إنك أمام فندق فى قرية "التّلّ الأسود" يا سيّدى » . فقال :

— « أسمع صوت شاب حديث السّنّ ، فهل لك يا صديقى أن تمدّ لى يدك وتعاوننى على الدّخول ؟ »

فمددت إليه يدى فأمسك بها فى قوة وغلاظة ، فحاولت أن أتملّص منه فذهبت محاولتى سدًى ، وسمعت صوته الرّقيق النّاعم ينقلب إلى صوت خشن أجشّ وهو يقول لى :

— « هيّا سِرْ بى إلى القبطان » . فقلت :

— « أقسم لك يا سيدى أنى لا أستطيع » . فقال وقد تملكه الغضب :

— « سِرْ بى إلى القبطان وإلا حطمت ذراعك » .

وأتبع القول بالعمل فلوى ذراعى وعصرها حتى كادت تسحق فى يده فقلت :

— « اعلم يا سيّدى أن القبطان لم يعد ذلك الرّجل الذى عرفناه ... إنه لا يتحرك إلا وخنجره مجرّد فى يده » . فقاطعنى قائلاً :

— « قلت لك سر بى إليه » .

فما سمعت فى حياتى صوتاً أغلظ من ذلك الصوت ولا أرهب ، فملأنى رعباً وحملنى على إجابة مطلبه دون مقاومة ، فمشيت بالرجل الضرير إلى الفندق ، وكان القبطان فى ذلك الوقت قد نزل إلى البهو وجلس فى أحد المقاعد ، فقد استطاع فى الأيام الأخيرة، بعد أن تحسّنت حاله ، أن يغادر غرفته وينزل إلى البهو ويقضى بعض الوقت فيه . وكانت يدى لا تزال ملويّة يضغط عليها الرجل ضغطاً قويّاً ،فلما دخلنا الفندق قال لى :

— « قُدْنى توًّا إليه وقل عندما يرانى : "هذا صديق لك يا بيل" فإذا خالفت أمرى عصرتك عصراً » .

وأراد أن يرينى بعض أنواع العقاب ، فهزّنى هزًّا شديداً حتى كاد يغمى علىّ ، فأذعنت له ودخلنا البهو معاً ، وقلت للقبطان بصوت مضطرب متلجلج ، تلك العبارة التى أنهاها إلىّ ذلك الوحش الآدمىّ : فالتفت القبطان إلينا ورأيت أنه قد تملكه الفَرَق والذُعر عند رؤيته ذلك الشّحّاذ ، فهمّ بالنهوض فخانته قواه ، فقال له الضرير :

— « هوّن عليك يا "بيل" ولا تنهض . . . إنى أعمى لا أرى ، ولكنّنى أسمع حتى حركة إصبع من الأصابع فمدّ يدك اليمنى » .

ثم التفت إلىّ وقال :

— « قرّب قبضة يده اليمنى من قبضة يدى » .

فأطعناه . ولمحت الضرير قد دسّ له فى راحة يده شيئاً كان فى كفّه الممسكة بالعصا ، فأطبق القبطان يده عليه وسمعت الضرير يقول : « قضى الأمر » ثم رأيته يفرج عنى ويمشى إلى الباب بخفّة القرد ، ويغادر الفندق ويتوغل فى الطريق ضارباً بعصاه وجه الأرض .

وأفقت من دهشتى ، وأفاق القبطان من ذهوله ، ورمى إلى راحة يده نظرة أليمة ثم قال : « لا يزال أمامنا ستّ ساعات . . . وسنقوى عليهم » . فنهض نهضة عنيفة ، ولكنّه لم يكد يستوى على قدميه حتى سقط إلى الأرض ، فهرعت إلى والدتى أدعوها ولكن على غير طائل فقد أصيب القبطان بالسّكتة القلبية ، وأصبح جثّة هامدة . . .





٤

قصصت على والدتى كل ما رأيت وسمعت ، وكل ما فهمت من حال ذلك القرصان العجوز الذى ودّع الحياة وأصبح فى عداد الأموات ، وفكرنا فى المبلغ المدين به لنا وقلنا ماذا لو أخذنا حقّنا مما يحويه صندوقه ؟ فلا نظنّ زملاءه القدماء سيفوتنا حقّنا إذا كانوا من طراز « الكلب الأسود » والشحّاذ الضرير .

وخطر لى أن أسارع إلى الطّبيب وأطلب إليه أن يجمع الرّجال ، كما كان أوصانى القبطان ، ليلقى القبض على تلك العصابة التى ستنقضّ علينا بين ساعة وأخرى . غير أنى لم أشأ أن أترك والدتى وحدها بإزاء جثّة القبطان

الممدّدة على الأرض، ولا سيّما أن الفندق كان خالياً من النزلاء ، وأن الليل قد بدأ يهبط بسواده البهيم ، فصحبتها معى إلى القرية المجاورة ملتمسين من أهلها العون والمساعدة ، فما رضى واحد منهم أن يهبّ إلى نجدتنا ، فقد كان اسم القبطان « فلنت » قد نشر الذّعر فى القلوب ، وكان أهل القرية يتوقّعون أن تفاجئهم عصابته فتعيث فى القرية فساداً .

عدنا أدراجنا إلى الفندق بعد أن ألقت أمّى على شبان القرية المجاورة درساً فى الشّجاعة والإقدام ، ودخلنا البهو يمسك أحدنا بالآخر ، ثم عمدت أمى إلى شمعة فأوقدتها ، فكان أول ما وقع نظرنا عليه جثة القبطان بعينيه المفتوحتين وإحدى ذراعيه المبسوطة فصاحت فىّ أمى :

– « أغلق النّوافذ يا "جم" فقد يراقبوننا من الخارج » .

ولما أقفلت النوافذ سمعتها تقول لى :

– « والآن يجب أن نعثر على مفتاح الصُّندوق فى جيب هذا (وأشارت إلى الجثّة) ولكن أنّى لنا ذلك ففرائصى ترتعد » .

دبّت فىّ الشّجاعة فانحنيت على الجثّة ، ورأيت بقرب الذّراع المبسوطة قطعة مستديرة من الورق المقوى قد سُوِّد أحد جانبيها ، ففهمت أنها « العلامة السوداء » فتناولتها وقرأت على جانبها الآخر العبارة الآتية مكتوبةً بخطّ واضح جميل : « نمهلك حتّى السّاعة العاشرة من هذا المساء »؛ فقلت لوالدتى إن القوم سيجيئون فى الساعة العاشرة ، ولشدّ

ما اضطربت مفاصلنا فى تلك اللحظة عندما سمعنا ساعة الفندق تدق سبع دقّات . فقالت لى والدتى :

— « هيّا يا "جم"! أسرع . . . المفتاح . . . »

فأخذت أفتّش فى جيوب الميت فلم أعثر على شىء فقالت أمى :

— « انظر لعله حول عنقه . . . »

فتملّكتنى الرعشة ، ثم غالبت اشمئزازى فمزّقت قميص الميت ، ورأيت المفتاح مربوطاً بحبل رفيع مستدير حول العنق ، فقطعت الحبل بموسى كانت معى واستوليت على المفتاح ، وجريت أنا ووالدتى إلى الغرفة التى سكنها القبطان طول الأشهر الماضية ، وعددنا عثورنا على المفتاح باكورة النّصر فى مهمّتنا ، فازددنا حماسة وشجاعة .

وقفنا قليلا عند الصّندوق فرأينا الحرف « ب » محفوراً على غطائه ، ثم تناولت أمّى المفتاح وأدارته فى القفل وفتحت الصّندوق ، فرأينا أولا بذْلة بحّار جديدة كأن لم تُلبس قطّ ، ورأينا تحتها كأساً من القصدير ، وبضعة أعواد من التّبْغ ، وغدّارتين ، وسبيكة من الفضة ، وساعة قديمة ، وبوصلتين ، وعدداً من الأصداف الهنديّة ، إلى غير ذلك من أشياء لاقيمة لها ، وأمعنّا نبحث فى قعر الصندوق فعثرنا على صُرّة مغلفة بالجلد قدّرنا أن فيها بعض الأوراق ، كما عثرنا على كيس لم نكد نلمسه حتى سمعنا رنين الذّهب فى جوفه فقالت أمّى :

— « سأرى هؤلاء النّاس أنى امرأة شريفة ، فلن أتناول من هذا المال إلا ما يحقّ لى من أجر إقامة القبطان فى فندقنا » .

فأخذت أمّى تعدّ وتحسُب ، وتلتقط من ذلك الكيس ما يفى بمطلوبها ، وكانت المهمّة شاقة لأن قطع الذّهب التى حواها الكيس منوّعة مختلفة المصادر ، فمن عملة بريطانية ، إلى إسبانية ، إلى هندية ، إلى غير ذلك .

وفى أثناء العدّ والحساب . تملّكتنى رعدة من رأسى إلى أخمص قدمىّ ، فأمسكت فجأةً بذراع أمى ، فقد سمعت فى ذلك الصمت الرهيب صوتاً انخلع له قلبى ، سمعت صوت عصا الرّجل الضرير يضرب بها أرض الطريق ، فكتمنا أنفاسنا وترقّبنا انقضاض الصّاعقة ، ثم سمعنا طرقاً على باب الفندق ودفعاً ، ولكن الباب كان موصداً بالمزلاج ، ثم تبع ذلك سكوت قاتل أعقبه صوت ضرب العصا على الطّريق ، فعرفنا أن الرجل استأنف سيره فتنفّسنا الصُّعَداء .

اكتفت أمىّ بأخذ مطلوبها ، واكتفيت أنا بأخذ الصرّة المغلّفة بالجلد وتركنا الشمعة موقدة فى الغرفة ، ونزلنا متماسكين متساندين . وفتحنا باب الفندق فى حرص وحذر ولُذْنا بأذيال الفرار تاركين الفندق لعناية القدر .

وبينما نحن نخبّ فى السّير ، ووجهتنا منزل بعض الأقارب ، سمعنا



وراءنا جلبة أصوات ، فالتفتنا إلى مصدر الأصوات فرأينا شعاعاً من النّور يتراقص ، فعلمنا أن مع القوم فانوساً ينير لهم الطّريق .

وكانت أمّي قد بلغ بها الإعياء كلّ مبلغ فقالت :

– « أشعر يا حبيبي "جم" أن الأرض تدور بي ، وأني سأسقط مغشيّاً عليّ ، فخذ المال وانْجُ بنفسك » .

ولم تكد تتمّ كلامها حتّى وقعت بين يديّ مغمى عليها ، فنفخ الله فيّ القوّة والعزم ، ورأيت أنّا على مسافة قريبة من جسر صغير ، فحملتها تارةً وجررتها تارةً أخرى حتى نزلت بها إلى ضفّة السّاقية تحت الجسر ، فاختبأنا هناك ، وكان الفندق على مرأى منا نستطيع أن نرى ما يجري حوله .





٥

استفاقت أمّى من إغمائها بعد قليل ، ودفعنى الفضول إلى أن أتغلب على الخوف ، وأن أخرج من مكمنى ، وأسير إلى تلّ قريب من الفندق وأتدارى وراء أشجاره ، فرأيت ثمانية رجال يتقدمهم رجل يحمل المصباح وينير لهم الطّريق إلى الفندق ، ووراءهم ثلاثة رجال يسيرون معاً وقد أمسك كلّ بيد الآخر ، فتبينت رغم الضّباب أن الذى يسير فى الوسط هو الشّحّاذ الضرير ، وازددت يقيناً عندما سمعت صوته وهو يقول لزملائه :

— « حطّموا الباب » . فقالوا كلّهم :

— « أمرك يا سيّدى » .

ثم رأيتهم قد خفتت أصواتهم وخفتت ضجّتهم كأنهم دهشوا إذ رأوا أن الباب كان مفتوحاً ، فصاح فيهم الضرير بصوت ملؤهالقسوة والغضب :

— « ادخلوا . ادخلوا . ماذا تنتظرون ؟ »

فدخلوا كلّهم إلا رجلين بقيا يراقبان الطّريق ويحيطان بالضّرير ، وإذا صوت من داخل الفندق يصيح قائلا :

— « لقد مات "بيل" » .

فزمجر الضّرير وصاح :

— « فتشوا جيوبه ثم هاتوا الصّندوق الذى فى غرفته » .

وكان القمر قد بدأ يطلع ويرسل شعاعه الباهت ، فرأيت أحد هؤلاء الرجال يفتح نافذة الغرفة التى أقام بها القبطان ويصيح بأعلى صوته :

— « لقد سبقنا غيرنا فالصندوق مفتوح ومحتوياته مبعثرة » . فقال الضرير :

— « وهل رأيت الصرّة ؟ » فقال المتحدث من النافذة :

— « كيس النّقود موجود » . فغضب الضّرير وصاح :

— « إلى الشيطان أنت وكيس النّقود . سألتك هل صرّة الجلد موجودة ؟ » فقال الرجل :

— « لم نجدها ! »

وخرج فى هذه الأثناء أحد الرجال واتجه إلى الضرير وقال له :

— « لقد فتش "بيل" أناس قبلنا ، فجيوبه مقلوبة والحبل الذى يحيط بعنقه مقطوع » .

فأرغى الضّرير وأزبد وقال :

— « هم لا شكّ أصحاب الفندق ، فقد كان الباب موصداً منذ قليل ، وكانوا هم داخل الفندق . آه من ذلك الفتى اللّعين لماذا لم أفقأ عينيه ؟ . . . تفرّقوا وابحثوا عنهم فلا بدّ أن يكونوا على مقربة منّا » .

وسُمع فى تلك اللحظة صفير بعيد الصّدى فقال أحدهم :

— « ها هو ذا "درك" ينذرنا بالخطر لنهرب » . فصاح الضّرير غاضباً :

— « أنهرب أيها الجبان ؟ ! إن "درك" رجل أبله فلا تحفلوا به ، إننا نريد العثور على أصحاب الفندق . هيا ابحثوا عنهم أيها الكلاب . آه لو كان لى بصرى ! »

وبقى الرجال متردّدين يريدون أن ينجوا بأنفسهم من الخطر الدّاهم الذى أنذروا به والرجل الضرير يحملهم على البحث عنا دون الاكتراث للخطر ، فلما وجدهم لم يتحركوا صاح فيهم :

— « أتترددون وأنتم من الثروة على قاب قوسين أو أدنى ؟ . . . لم يجرؤ واحد منكم على مقابلة "بيل" فقابلته أنا الضّرير . . . ابحثوا عن

أصحاب الفندق في حوزتهم مفتاح الكنز » . فقال له أحدهم :

– « لقد وجدنا كيس النّقود وهو مملوء بالذّهب وهذا حسبنا » .

فقال آخر :

– « ربما أخفوا الصُّرّة التي نبحث عنها ، فلنأخذ كيس الذهب وكفاك أيها الضّرير نهيقاً » .

وما إن سمع الضرير كلمة النّهيق حتى فقد صوابه ، فرفع عصاه وأخذ يضرب بها يميناً وشمالا فأصاب غير واحد من زملائه ، فهجموا عليه يريدون تجريده من عصاه فلم يفلحوا .

وكانت هذه المعركة سبب نجاتنا ، فقد سمعت في أثنائها وقع حوافر جياد ، وطلقاً ناريًّا يدوّى في الفضاء ، فعرفت أنه الإنذار الأخير بالخطر إذ رأيتهم يلوذون جميعاً بالفرار ، ويتجهون إلى البحر ولم يبق منهم في موضعه إلا الرجل الضّرير تركوه وشأنه انتقاماً منه ، فمشى هو على غير هدى ، يتعثر حيناً وينهض حيناً آخر ليستأنف المسير . ويشاء حظه العاثر أن يكون ملقى على الطريق عندما وصل أول فارس من أولئك الفرسان الذين سمعت وقع حوافر جيادهم فداسه الجواد وتركه جسداً بلا روح .

وأقبل بقيّة الفرسان فإذا هم من رجال الجمارك وخفر السّواحل ، فخرجت إليهم وعرفت أنه قد نمى إليهم أن عصابة من اللصوص والمهرّبين

قد نزلت فى أحد السّواحل البعيدة ، وسارت إلى القرية تعمل فيها السَّلب والنَّهب ، فجدُّوا يبحثون عن رجالها ، فقصصت على رئيسهم خبر تلك العصابة ، والسّبب الذى من أجله قد نزلوا بقريتنا ، وقلت له إن الشيء الذى جاءوا يستولون عليه هو فى جيبى وأوَدّ أن أضعه فى حرز أمين ، فطلب إلىّ أن أدفع به إليه ، فاعتذرت وقلت أوثر أن أقدمه إلى طبيب القرية ، فوافقنى على ذلك وأردفنى وراءه على جواده ، وسارت كوكبة الفرسان فى طريقها إلى منزل طبيب القرية الدكتور « ليفزى » بعد أن نقلنا والدى إلى الفندق . أما رجال العصابة فقد عرفنا بعد ذلك أنهم استقلّوا مركبهم وتواروا به فى عرض البحر .





٦

وصلنا إلى منزل الدكتور « ليفزى » فقيل لنا إنه يقضى السهرة فى قصر عمدة القرية ، فتوجّهنا إلى قصر العمدة ، ولما بلغناه ترجّل رئيس الحرس وترجّلت بعده ودخلنا القصر ، فقادنا الخدم إلى حيث كان العمدة والطّبيب يسمران ويتحدّثان ، فأدّى رئيس الحرس التّحيّة العسكريّة ، وشرع يروى للعمدة أخبار العصابة وما عرفه منّى عن أغراضها . وكان العمدة رجلا طويل القامة قد لوّحت وجهه الأسفار ، كثّ شعر الحاجبين ، يدلّ مظهره على الصراحة وطيبة القلب ، فأصغى إلى تقرير رئيس الحرس باهتمام بالغ لا يقلّ عن اهتمام الطّبيب ، وعندما فرغ

من روايته التفت الطّبيب إلىّ وقال :

– « أفى حوزتك إذن يا "جم" الشىء الذى جاءوا يبحثون عنه ؟ »

فقلت :

– « نعم يا سيّدى » .

وأخرجت من جيبى الصرّة المغلّفة بالجلد ، ودفعت بها إليه فقلّبها فى يديه ظهراً لبطن وهو يتحرّق شوقاً إلى فتحها ، ولكنه لم يفعل بل وضعها فى جيبه وقال :

– « يستحسن يا عزيزى "جم" أن تقضى الليل فى منزلى ، ففندقك بعيد والليل كاد ينتصف » .

فشكرت له دعوته ، ثم استأذن رئيس الحرس فى الانصراف فأدّى التّحيّة العسكريّة وانصرف هو ورجاله .

وأمر لى العمدة بطعام أكلته بشهوةٍ لا مزيد عليها ، وما إن فرغت من الطعام حتى سمعت العمدة يقول :

– « والآن ؟ » فقال الطبيب :

– « أظنّك يا سيدى العمدة قد سمعت برجل يدعى "فلنت" » .

فقال العمدة :

– « سمعت به ؟ ! إنه القرصان الذى ملأ القلوب ذعراً وخوفاً » .

فقال الطّبيب :

– « وأنا أيضاً سمعت به وبجرأته العجيبة . . . ولكن أتراه غنياً ؟ »
فقال العمدة :

– « أما سمعت قصّة العصابة التي جاءت تبحث عن مفتاح الكنز ؟ »

فقال الطّبيب :

– « لنفرض أن الشيء الذى فى جيبى هو مفتاح الكنز فبكم يقدّر؟»
فقال العمدة :

– « إنه كنز والسلام . فإذا كانت الدلائل إليه واضحة . فإنى سأشترى مركباً من ميناء "برستول"، وأزوّده بالبحّارة وبما يلزم من عدّة ومؤن ، ونذهب نحن الثلاثة أنا وأنت و "جم" للبحث عن هذ الكنز ولو قضينا فى البحر سنة كاملة » . فقال الطبيب :

– « حسن . . . لنفتح إذن الصّرة بعد استئذان "جم" » .

وأخرج الطّبيب الصّرة من جيبه ، وقصّ بموساه موضع الخياطة منها فإذا فيها دفتر وورقة مختومة ، وكان فى الصفحة الأولى من الدفتر كتابة بخطّ ردىء جداً لا يفهم منها أىّ معنى من المعانى ، وكان فى الصفحات الاثنتى عشْرة الأخرى جمل غريبة وأرقام وتواريخ ، وبين كل منها عدد من الصّلبان ، وكان كذلك فيها بعض الأرقام التى تدلّ على خطوط الطول والعرض ، فاعتقدنا أنه الدّفتر الذى كان يدوّن فيه صاحبه



غزواته والمغانم التى كان يحصل عليها . فقال العمدة :

— « لننظر ماذا تحوى الورقة المختومة » .

فنزع الطّبيب الأختام الموجودة على الورقة ، وسقطت منها خريطة جزيرة من الجزر ، مبيّناً فيها خطوط الطول والعرض وعمق المياه المحيطة بها وأسماء التّلال والموانى التى فيها ، وعلى الجملة كل ما تحتاج إليه سفينة من السّفن تريد أن تطرح مرساتها فى مياه تلك الجزيرة .

وتدلّ الخريطة على أن مساحة الجزيرة تسعة أميال فى خمسة ، وعلى أن لها ميناءين متقابلين يتوسّطهما تلّ مرتفع اسمه « المنظر البعيد » . وكان على الخريطة ثلاثة صلبان بالحبر الأحمر : اثنان فى القسم الشمالىّ من الجزيرة ، وواحد فى القسم الجنوبى الغربى منها ، وكتب إلى جانبه بمدادٌ أحمر وخط جميل « هنا مجموع الكنز » . وكان بظهر الورقة إشارات أخرى مكتوبة بالحبر الأحمر وبالخطّ الجميل نفسه ، وكلّها تدلّ على موقع الكنز وطريقة الوصول إليه ، ومذيّلة بالحرفين الآتيين : « ج . ف . »

كان كل ذلك ألغازاً وأحاجى لم يستوعبها ذهنى ، أمّا العمدة والطّبيب فقد استولى عليهما فرح شديد حتى إن العمدة قال للطّبيب :

— « يا عزيزى "ليفزى" ستهجر فى الحال هذه المهنة الشّاقة التى تزاولها . . . سأسافر غداً إلى "برستول" وفى خلال أسبوعين أو ثلاثة أكون قد أعددت أعظم سفينة وزودتها بأمهر البحّارة ، وستكون أنت

طبيب السّفينة و "جم" صبيّها وأنا الأميرال . وسأخذ معى ثلاثة من خدمى الأمناء ، ولن يصعب علينا معرفة موقع الكنز ، فقال الطّبيب :

— « سأصحبك مغتبطاً ، وسيصحبنا كذلك "جم" ولكننى أخاف من رجل واحد » . فقال العمدة :

— « ومن هذا الحيوان ؟ » فقال الطبيب :

— « هو أنت يا سيّدى العمدة ، فإنك كثير الكلام يضايقك أن تحفظ السّرّ ، فلسنا وحدنا مَنْ يعلم بوجود هذه الورقة ، فالعصابة التى هاجمت الفندق لن تحجم عن استعمال جميع الوسائل فى سبيل الحصول على الكنز ، فمن صواب الرأى أن تلتزم الصّمت » . فقال العمدة :

— « يا عزيزى "ليفزى" إنك دائماً على صواب ، فسوف ترانى أصمّ كالقبر » .





القسم الثانى

طباخ السفينة

٧

سافر العمدة فى اليوم التالى إلى « برستول » ليعد معدات الرحيل ، واصطحب معه ثلاثة من الخدم الأشداء كانوا موضع الثقة ، وذهب الطبيب إلى لندن ليرجو من أحد أصدقائه الأطباء أن يحل محله فى القرية . وطلب إلى العمدة أن أبقى فى القصر وقال إنه سوف يستدعينى إليه عندما تتهيأ أسباب السفر . فبقيت فى القصر أحلم بتلك الجزيرة التى سنركب البحر إليها ، وأتخيل غاباتها وتلالها وأنهارها وما فيها من غريب

النّبات والحيوان .

مضى على ذلك نحو أسبوعين دعانى العمدة بعدهما إلى أن أوافيه إلى « برستول » ، فودّعت أمّى وأخبرتها بأمر الرّحلة وأوصيتها بالكتمان الشديد ، وأخذت محلى فى إحدى المركبات العامّة المسافرة إلى « برستول » وأنا أكاد أطير من الفرح .

وصلت إلى الفندق الذى نزل فيه العمدة فرأيت الطّبيب « ليفزى » قد وصل هو أيضاً فى ذلك اليوم ، فرحب كلاهما بى ، وجلست أصغى إلى حديث العمدة يروى لنا كيف اشترى السفينة ، وكيف وفّق إلى اختيار نفر من البحارة هم على جانب عظيم من القدرة والمهارة فقال له الطبيب :

— « أواثق أنت يا سيّدى العمدة من قدرتهم ومهارتهم ؟ » فقال العمدة :

— « كلّ الثّقة . . . ولا أكتمك يا عزيزى أن الذى اختار لى أغلبهم بحّار قديم تمرّس بالأسفار وأهوال البحار ؛ وهو رجل كفىّ قدير اسمه "سلفر" ولكنه مقطوع الساق ، فقد اضطرته عاهته هذه إلى أن يكون طباخاً لعجزه عن القيام بأعمال البحّارة ، فعيّنته طبّاخ سفينتنا » .

ساورتنى المخاوف عند سماعى كلمة مقطوع الساق وتذكرت أن

القبطان الذى كان نازلا بفندقنا قد حذّرنى جداً من رجل مقطوع السّاق كان يخشى أن يلمّ به بين ساعة وأخرى ، غير أنى طردت عنّى تلك الوساوس وقلت فى نفسى : ذاك قرصان خطر وهذا طبّاخ مسكين ، ولا يمكن أن يكون الرجلان واحداً . وقطع علىّ تفكيرى صوت العمدة يقول للطبيب :

— « ولكنّك يا عزيزى الطّبيب لم تسألنى عن اسم السّفينة التى ستقلّنا إلى جزيرة الكنز ! » فقال الطبيب :

— « وما اسمها ؟» فقال العمدة :

— « " إسبنيوليا " . . . أليس اسماً جميلا ؟ » فقال الطبيب :

— « جميل جدّاً . . . ومَنْ قبطانها ؟» فقال العمدة :

— « ستراه غداً عندما تُقلع السفينة ، وهو رجل رزين بارع أوصانى به أحد أصدقائى المخلصين ، ولقد نصحنى الطّبّاخ المقطوع الساق أن أستغنى عنه ، وأن يبدلنى به قبطاناً مشهوداً له بالمهارة والبراعة ، فلم أشأ أن أستمع إلى نصيحته لمكانة القبطان من نفس صديق الذى زكّاه عندى ، ورعايةً للعقد الذى أبرمته معه » .

وكان موعد الغداء قد حان فأكلنا هنيئاً ونحن نتحدّث عن آمالنا الواسعة فى العثور على جزيرة الكنز . ولما انتهينا من تناول الطعام كتب العمدة رسالة ، وطلب إلىّ أن أوصلها إلى « سلفر » طبّاخ السّفينة ، ووصف لى المكان الذى أستطيع أن ألقاه فيه وقال لى :



— « إذا سرت فى محاذاة الشاطئ فسوف تصل إليه بعد دقائق معدودات » .

فطرت إلى المكان المعهود فإذا هو حانة أكثر روادها من البحارة، فترددت قليلا قبل أن أغشاها، وبينا أنا فى ترددى فُتح باب الحانة وخرج منه رجل مقطوع الساق حتى الخصر، وتحت إبطه الشمال عكازه يقفز بها قفز العصافير، فما شككت فى أنه «سلفر» طباخ السفينة، فحدقت فيه مليًّا فبدا لى من مظهره المرح وأسارير وجهه المبتسمة ما بدد منى الريب والشكوك عند سماعى اسمه . فتقدمت منه ومددت يدى إليه بالرسالة وقلت :

— « يا سيدى "سلفر" » فقال :

— « نعم يا عزيزى . أنا " سلفر " فمن تكون أنت ؟ »

وكان قد فض الرسالة وعلم أنها من العمدة فاختلج فؤاده فرحاً وقال :

— « مرحباً بك يا عزيزى . أنت صبى سفينتنا . أهلا بك أهلا » .

ثم مد إلىّ يده الغليظة مصافحاً . وفى هذه الأثناء خرج من الحانة رجل يسرع فى مشيته كأنه يركض ركضاً ، فلفت نظرى سرعته وعرفت فى الحال أنه الرجل ذو الإصبعين المقطوعين ، ذلك الذى كان أول مَنْ جاء إلى فندقنا من رجال العصابة ، فصرخت فى محدثى :

— « أسرعوا . اقبضوا عليه . إنه "الكلب الأسود" » .

ولكن الرجل كان قد توارى عن العيان فى سرعة البرق الخاطف

فقال لى « سالفر » .

— « ومَنْ يكون هذا "الكلب الأسود" ؟ » فقلت :

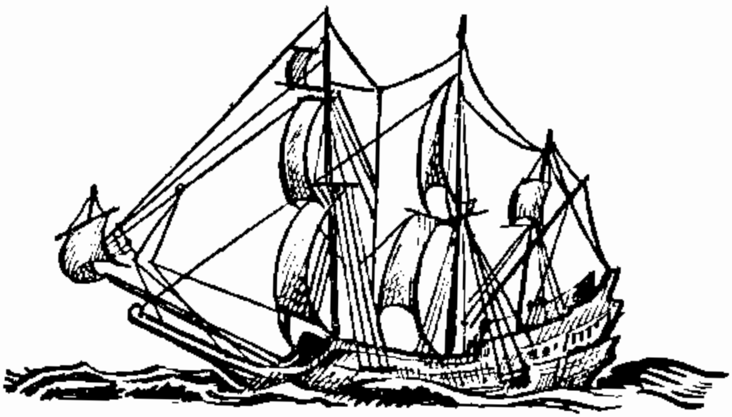
— « ألم يخبرك العمدة بأمر العصابة التى عاثت فى تريتنافـدا ؟ » فقال :

— « كلا ! ولكن ما لنا و "للكلب الأسود" أو القطّ الأسود . تعال نتنزه قليلا على شاطئ البحر » .

فسرنا معاً نتحدّث فى أمور مختلفة ، وما زلنـا نسير على شاطئ البحر فى اتجاه فندق العمدة حتى بلغناه . ورأينا فيه العمدة والطّبيب منهمكين فى الحديث معاً . فبادرناهما بالتّحية ، وقص «سالفر» عليهما قصة «الكلب الأسود» فى براءة وسذاجة . ثم صاح العمدة بنا جميعاً وهو يقول :

— « الملتقى فى الساعة الرابعة على ظهر السفينة » .





٨

أراد العمدة أن يزور السفينة ليطمئنّ على أن كل شيء فيها قد تمّ إعداده كما شاء واشتهى . فلما كنا على ظهرها فى الموعد المضروب ، استقبلنا فيها مساعد القبطان ، وما إن دخلنا المقصورة الخاصّة بالعمدة حتى رأينا القبطان قد دخل وراءنا وأوصد الباب وقال للعمدة :

– « سيّدى ! إن لى معك حديثاً مهمّاً فهل تسمح بأن أدلى به إليك ؟ »

فقال العمدة :

– « عن طيب خاطر يا سيّدى القبطان . أرجو أن يكون كل شيء

على ما يرام » . فقال القبطان :

— « أرجو أن تغفر لى يا سيّدى صراحتى ولو أزعجتك . فهذه الرّحلة لا تعجبنى ، فلست براضٍ عن البحّارة الذين اخترتهم ولا عن مساعدى ». فقال العمدة وقد بدت على وجهه علامات الاستياء :

— « لعل السّفينة لا تعجبك أيضاً يا سيّدى القبطان ! » فقال القبطان :

— « لم أجرّبها حتى أقطع فيها برأى » . فقال العمدة متهكّماً :

— « ولعل صاحب السّفينة لا يعجبك أيضاً يا سيّدى القبطان ! » .

فتدخّل الطّبيب « ليفزى » فى الأمر وقال :

— « على رِسْلكما يا سيّدىّ : فمثل هذا الحديث لا يفيدنا بشىء » .

والتفت إلى القبطان وقال :

— « تقول يا سيّدى إن هذه الرحلة لا تعجبك فلماذا ؟ » فقال القبطان :

— « لقد عهد إلىّ فى قيادة هذه السفينة دون أن أعلم إلى أين نحن ذاهبون فرضيت بذلك ما دام صاحبها معنا . ولكن اتّضح لى أن أصغر بحّار على ظهرها يعلم من أمر الرحلة فوق ما أعلم ، فكل البحّارة يعرفون أننا ذاهبون للبحث عن كنز من الكنوز ، فأن أعلم خطّة السّير وغرض الرحلة ممن هم تحت إمرتى وقيادتى . . . لا . لا . هذا أمر لا أرضاه

لنفسى » فقال الطّبيب :

— « سيطلعك حضرة العمدة على كل ما تودّ أن تعرفه وهذا من حقك . . . ولكن قلت إن البحارة لا يعجبونك . . . » فقال القبطان :

— « أجل قلت إنهم لا يعجبوننى . . . فقد كان يجب أن يترك إلىّ أمر اختيارهم ليكون لى مطلق السلطان عليهم . فهم الآن يضعون البارود والسّلاح فى غير المكان المخصص بالبارود والسّلاح ، ثم إنه قد كثر اللغط والقيل والقال عن هذه الرحلة ، فهم يزعمون أن لدى سيّدى صاحب السفينة خريطة تبين موقع جزيرة الكنز وأن على الخريطة صلباناً حمراً تشير إلى مكان الكنز . . . » فقاطعه العمدة قائلا :

— « لم أفضِ بشىء من هذا لأىّ كان ! » فقال القبطان :

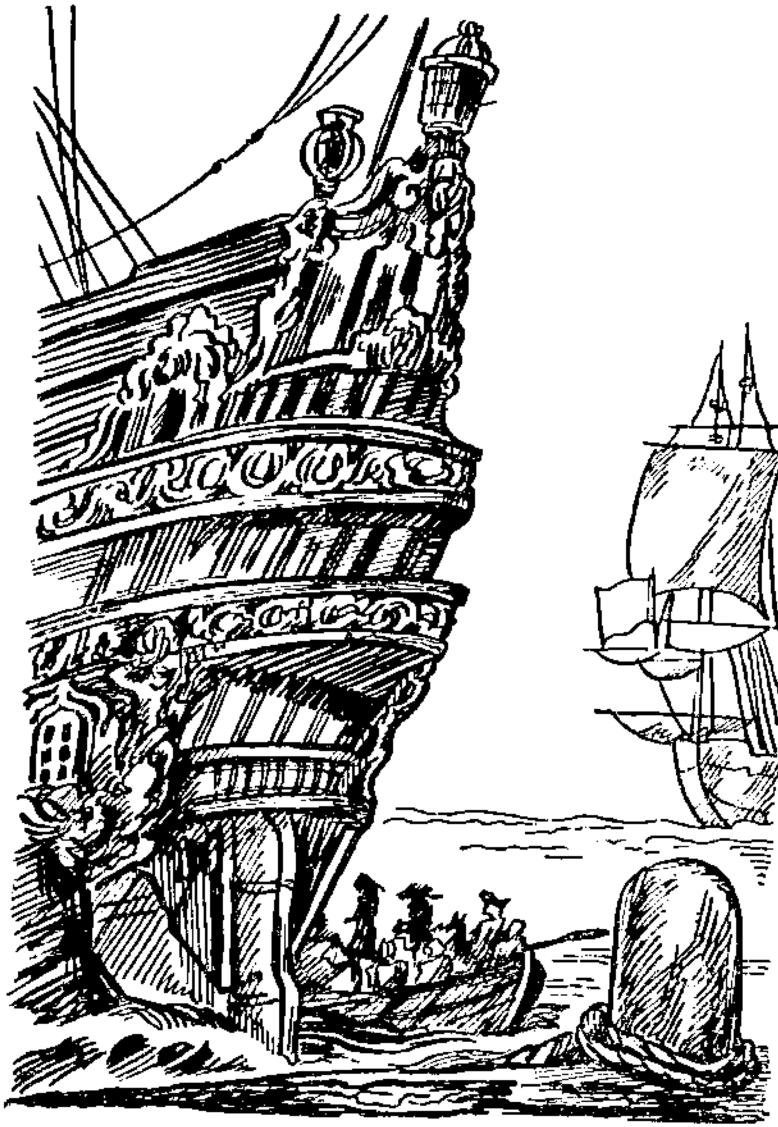
— « جميع البحارة يعرفونه » فقال العمدة موجّهاً الخطاب إلىّ وإلى الطبيب :

— « لعلّكما حدّثتما أحداً بسر هذه الرّحلة » فقال الطبيب :

— « ليس المهم أن نعرف مصدر الخبر بل المهمّ أن نتلافى ما ينجم عنه من ضرر . . . » فقال القبطان موجّهاً خطابه إلى العمدة :

— « إن الظّروف التى تحيط بى لا تجعل مهمّتى يسيرة سهلة ، فأرجو يا سيدى أن تتفضل بقبول استقالتى » .

فأسرع الطبيب فى الجواب وقال :

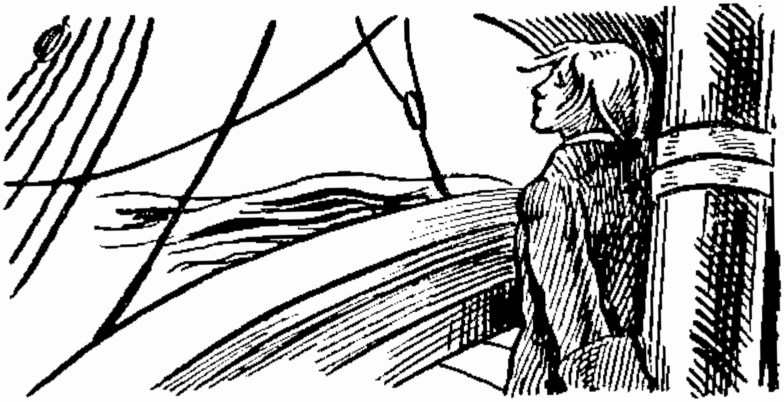


– « أظنّنى أعبّر عن رأى حضرة العمدة. فأنت يا سيّدى قبطان السّفينة ولك فيها الأمر والنّهى » .

فهزّ العمدة رأسه موافقاً . وبدت على وجه القبطان أمارات الرّضى فانحنى شاكراً وانصرف .

وعندما خرجنا إلى سطح السفينة رأينا البحارة يعيدون نقل البارود والسّلاح إلى المكان الذى عيّنه لهم القبطان ، وكان هو ومساعده واقفين ينظران ويراقبان .





٩

دوّت صفّارة الرّحيل فى فجر اليوم التّالى، فاصطفّ البحّارة على سطح السّفينة يتلقّون أوامر القبطان، ثم فرّقتهم صفّارة القبطان فذهب كلٌّ إلى عمله، وسارت السفينة تتهادى فى عرض البحر وتشقّ جبال الأمواج متكبّرة عاتية.

وقضينا أياماً وليالى بين بحر وسماء، تشتدّ العواصف والأنواء أحياناً فتترنّح السّفينة فى قبضتها حتى تجتاز المهالك والأخطار، وتهبّ علينا أحياناً أخرى ريح رُخاء فتنساب السّفينة فيها على وجه الماء انسياباً لطيفاً إلى أن قربنا من خاتمة المطاف، ولاحت لأعيننا الجزيرة التى عقدنا

عليها واسع الآمال ، وجئنا نجتثّ منها كنزها الدّفين .

وكان البحّارة فى أوقات اللهو والفـراغ يجتمعون على سطح السفينة ، ويتبادلون النّكات والمزاح والنّوادر ، وكان واسطة العقد فيهم « سلفر » الطبّاخ المقطوع السّاق .

وكثيراً ما التفّوا حوله وطلبوا منه أن يغنّيهم بعض الأغانى فيرفع عقيرته وينشد ذلك النّشيد العجيب :

« كانوا عدداً من بحّارة . . . »

فيردّ عليه زملاؤه بأصواتهم الشنيعة :

« جلسوا من فوق التابوت »

ها ها ! ها ها ! ها ها ! ها ها ! »

وأظهر العمدة فى معاملة البحّارة منتهى الكرم ، فكلما انشرح صدره وابتسمت له الآمال ، وزّع عليهم وَجَبات الطعام مضاعفة ، وأمر لهم بصندوق كبير من التفّاح ينهالون عليه انهيالا ، ويزدردونه فى دقائق قليلة . وكان القبطان يعارض فى ذلك الإغداق كلّ المعارضة خوف أن يبطرهم الترف ، ولم يكن أحد يدرى أن صناديق التفّاح هذه ، ولا سيما صندوق فارغ منها سيكون له شأن وأىّ شأن . . .

ذلك أنه لما حدنا عن الطّريق المسلوك ، واتّجهنا إلى الجزيرة المنشودة ، وأصبحنا على مقربة منها ، دب فى البحّارة دبيب النشاط ، وكثرت



روحاتهم وغدواتهم على مختلف أماكن السّفينة .

كان الوقت بعد الغروب ، فلما أتممت عملى وتوجّهت إلى مخدعى تاقت نفسى إلى تفّاحة فصعدت إلى سطح السّفينة تكتُم أصوات الأمواج وقع خطاى ، فلم يرنى البحار الذى يتولّى إدارة دفّة السفينة ، وذهبت توًّا إلى برميل تفّاح ففتحت غطاءه ومددت رأسى فيه فلم أجد غير تفّاحة واحدة ، فهممت بأخذها ولكنّنى سمعت فى تلك اللحظة وقع أقدام ، فاختبأت فى البرميل وأعدت غطاءه كما كان . ثم شعرت برجل قد جلس إلى جانب البرميـــل وأسند كتفيه إليه وبدأ يتكلم وكان « سلفر » الطّباخ ، فخطر لى أن أخرج من مخبئ غير أن الكلمات التى سمعتها حتّمت علىّ أن أظل فى مكمنى ، وأن أرهف السّمع إرهافاً شديداً والخوف يملأ جوانحى .

سمعت سلفر يقول لرجل معه :

— « كلا . لم أكن أنا القبطان بل كنت رئيس البحارة فى سفينة " فلنت " . . . آه ! كم أغرقنا من سفن ! وكم استولينا على غنائم وأسلاب . . . إن ساقى بترت فى غزوة من تلك الغزوات . . . إن القبطان "فلنت" كان داهية من الدّواهى . وكان وافر الغنى مثقلا بالذّهب . . . وهذا الكنز الذى نسعى إليه هو كنزه . . . لقد مات وترك الكنز . . . وتفرّقت رجاله . . . فعلى ظهر هذه السّفينة بعضهم ينتظرون أن ينالوا

نصيبهم من الغنيمة » . فقال المستمع له وهو أصغر البحّارة واسمه " ديك " وقد عرفته من صوته :

— « وعلام هذه المجازفة إذا كنتَ فى يسر وسعة حال ؟ » فقال « سلفر » :

— « المال . المال يا عزيزى هو السّحر الذى لا يقاوم . ألست أحق بكنز " فلنت " من هؤلاء النّاس الذين يريدون أن يستولوا عليه غنيمة باردة ؟ أقول لك هذا لأنك شابّ ظريف أحببتك منذ وقعت عينى عليك ، وسأحتفظ لك بنصيبك من الكنز » . فقال « ديك » :

— « شكراً لك يا عزيزى " سلفر " ويمكنك أن تعدّنى منذ الآن أحد رجالك » .

وفى هذه الأثناء قدم رجل ثالث فقال له « سلفر » :

— « " ديك " موافق » . فقال الثّالث :

— « إنه ذكى خبيث فليس له إلا أن يوافق . ولكنّنى سئمت الانتظار فمتى نبدأ العمل ؟ » فقال « سلفر » :

— « عندما يحين الوقت » فقال :

— « ومتى يحين هذا الوقت ؟ » فقال « سلفر » :

— « فى الدّقيقة الأخيرة . . . إنكم كلكم حمقى . . . تتملككم قلة الصبر وتنقصكم الخبرة والدّراية . . . أنا رأسكم المفكر فدعونى أعمل

وما عليكم إلا تنفيذ خططى » . فقال « ديك » :

– « عندما نعتقل صاحب السفينة ومَنْ معه فاذا نحن فاعلون بهم؟ »

فقال « سلڤر » :

– « هذا سؤال حصيف . فما ظنّك أننا فاعلون بهم ؟ » فقال « ديك » :

– « نتركهم فى الجزيرة ! » فقال « سلڤر » :

– « هناك خطّتان : فإما أن نتركهم فى الجزيرة وهذا مذهب "بيل" وإما أن نقتلهم وهذا مذهب "فلنت" فقد كان يقول : " إن الكلب الميت لا يعض " وأنا أؤثر هذا المذهب » .

ولكم أن تقدروا خوفى وذعرى عندما سمعت هذا الكلام ، وتبيّنت نية « سلڤر » . وكنت أفكر فى هذا المصير المشؤوم الذى ينتظرنى وينتظر العمدة والطّبيب والخدّام الثلاثة الذين صحبهم العمدة معه ، وربما امتدّ هذا الحكم الشّنيع فشمل أيضاً القبطان . . . فمن لى بأن أطير إلى جماعتى وأنذرهم بالخطر الدّاهم المحيق بهم . . . وقطع علىّ تفكيرى صوت ضخم انطلق من حلق رجل الدّفّة وهو يقول : « لقد وصلنا » .





١٠

نهض المتآمرون عند سماعهم ذلك الصوت وابتعدوا من البرميل ، فتنفّست الصُّعداء وخرجت من مكمنى فى حذر شديد، فرأيت نداء رجل الدّقّة قد فعل فعله. فقد امتلأ سطح السّفينة بالبحّارة وعلى رأسهم القبطان يلقى إليهم بأوامره . فاختلطت بهم وأنا أتلهف شوقاً إلى الإفضاء بما عندى من سرّ خطير إلى العمدة أو إلى الطّبيب . ورأيت القبطان قد أخرج من جيبه خريطة الجزيرة ليدلّ البحّارة على المرسى الذى يجب أن ترسو فيه السّفينة . فلم يكد « سلفر » يرى الخريطة حتى قدحت عيناه شرراً ، فاقترب من القبطان وكأنه يريد أن يلتهم الخريطة التهاماً . فلمّا

وقع نظره عليها خاب ظنّه ولكن لم يبدُ على وجهه أىّ أثر من تلك الخيبة .

كانت الخريطة صورة طبق الأصل من الخريطة التى كنا عثرنا عليها فى صندوق القرصان « بيل » غير أنه لم يكن فيها الصّلبان الحمر التى تشير إلى موضع الكنز ، وأدرك « سلفر » بذكائه أنها ليست الخريطة الأصلية ، فورقها جديد لا يدل على أنها قديمة العهد ، ولمّا رأى القبطان أن « سلفر » يطيل النظر إلى الخريطة نهره وألزمه النّزول إلى المطبخ فنفّذ الأمر صاغراً .

واستدار القبطان إلى العمدة والطّبيب ، وانهمك الثّلاثة فى حديث طويل . وكنت أنا فى هذه الأثناء على أحرّ من الجمر ، فخفق فؤادى ارتياحاً حين رأيت الطّبيب يبتعد قليلا من صاحبيه ، ويدعونى إليه طالباً منى أن آتيه بغليونه فقد نسيه فى مقصورته ، فأجبته بصوت عالٍ :

« حبّاً وكرامة يا سيدى » .

ثم قلت له بصوت منخفض :

– « لدىّ أنباء هائلة ! »

وخففت إلى مقصورته وأتيته بالغليون ، ورأيته قد عاد إلى العمدة والقبطان واشترك معهما فى الحديث ، فتناول منى الغليون شاكراً ، وغمزنى بعينيه غمزة خفيّة فهمت منها أنه معنىّ بما قلته له فعدت إلى مكان عملى .

وبعد نحو ساعة استدعانى القبطان إلى مقصورته ، فهرعت إليها ووجدت فيها الطبيب والعمدة يتشاوران والقبطان ، فالتفت إلىّ العمدة وقال :

ـ « ماذا تريد أن تفضى به إلينا يا " جم " ؟ »

فقصصت عليهم كل ما سمعت ، فالتفت العمدة إلى القبطان وقال :

ـ « لقد كنتَ يا سيّدى القبطان على حق وكنتُ أنا المخطى ، وإنى لأعترف لك ببلاهتى وحمق ، وها أنا ذا أضع نفسى طوع أمرك وتصرّفك » فقال القبطان :

ـ « عفواً يا سيّدى . . . إن الكلام لا يغنينا شيئاً ، فإذا سمحت ذكرت لكم الرأى الذى أرى » . . فقال العمدة :

ـ « أنت القبطان فمر بما ترى » فقال القبطان :

ـ « علينا أوّلا أن نتابع مهمّتنا ، فنرسى السّفينة فى الميناء وننزل إلى الجزيرة ، فلو أمرتُ بالعودة لثار البحارة علينا فى الحال . ولنا ثانياً متّسع من الوقت ، فما إخالهم فاعلين شيئاً قبل أن نعثر على الكنز . وهناك ثالثاً بعض البحّارة الأوفياء لنا وفى طليعتهم خدمك يا سيدى العمدة فيمكننا الاعتماد عليهم فى صراعنا مع هؤلاء الأبالسة » فقال العمدة :

ـ « يمكنك الاعتماد عليهم اعتمادك علىّ أنا » . فقال القبطان :

ـ « هذا حسن . . . هم ثلاثة ونحن أربعة بما فينا الفتى " جم "

فالمجموع سبعة . ولا بد أن نلق بين البحّارة من ينضم إلينا » . فقال الطّبيب :

ــ « لابدّ . . . ولاسيا بين أولئك الذين استخدمهم حضرة العمدة قبل أن يلتقى " بسلفر " الغدار » . فقال القبطان :

ــ « علينا يا سادة إذن أن نكون فى غاية الحذر . . . وأن نعرف رجالنا حتى تحين ساعة العمل . . . فلننتظر لنرى من أين تهبّ العاصفة ».





القسم الثالث

مغامراتي في الجزيرة

١١

رست السفينة في صبح اليوم التالي عند مدخل قطعة جرداء من الجزيرة، وأنزلت القوارب وزودت بالسلاح . فأخذت مكاني في أحدها وذهبنا نستطلع قليلا شأن هذه الجزيرة العجيبة. وكان الحر شديداً لا يطاق، فابتدأ البحارة يتأففون ويتذمرون، وكأن رؤية الجزيرة وقرب نزولنا فيها قد أطاحا بالنظام وأشاعا في البحارة التمرد والفوضى .

نزلنا إلى أرض الجزيرة فقابلتنا رائحة كريهة تتصاعد من أوراق

الشجر والأغصان المتعفنة والماء الآسن ، وشهدت الطبيب يطيل التنفس كمن يستطلع نوع تلك الرائحة الكريهة فقال :

— « نحن في أرض مملوءة بالحميات » .

جلنا قليلا في بعض النواحي حتى انتصف النهار فعدنا إلى السفينة ، ولمست أنا ورفقائي ازدياد التمرد في البحارة ما عدا « سلفر » فقد كان على جانب عظيم من الوداعة والطاعة والنشاط .

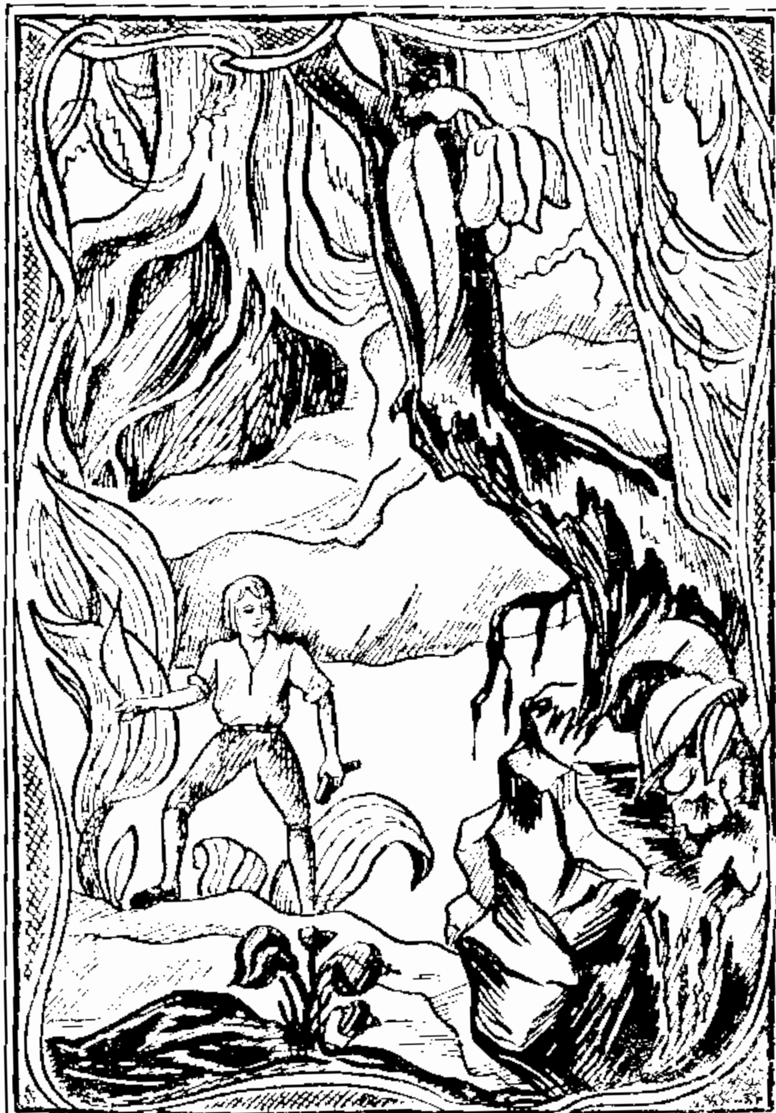
دعانا القبطان بعد الغداء إلى مقصورته فذهبنا إليه نحن الثلاثة فقال :

— « تلاحظون يا سادة تذمر البحارة ، ويخيل إلى أني لو أصدرت إليهم الآن أى أمر من الأوامر لاندلع فيهم لهيب الثورة التي نحاول أن نذر عليه الرماد بالصبر وطول البال . وليس هناك إلا رجل واحد نستطيع أن نركن إليه في هذا الظرف الحرج الدقيق » . فقال العمدة :

— « ومن هو ؟ » فقال القبطان :

— « هو "سلفر" نفسه . . . فليس أقل منا رغبة في تهدئة الخواطر واستتباب النظام ، وهو صاحب نفوذ في زملائه فلنمكنه من القبض على ناصية الحال » .

فوافقنا جميعاً على رأيه ، وخرجنا إلى سطح السفينة ، فجمع القبطان البحارة وقال :



ـ « أيّها الزملاء ! إن الحرّ شديد وكلكم متأفّف متضايق ، فإنى أسمح لمن يشاء منكم بجولة فى أطراف الجزيرة . فالقوارب لا تزال جاهزة ، وأعهد إلى "سلڤر" فى تنظيم الجولة وقيادتها ، فعودوا قبيل الغروب عندما تسمعون طلقة بندقية » .

وأدار القبطان ظهره ونزل إلى مقصورته قبل أن يسمع أى جواب كان ، فتلقى بعض البحّارة ذلك الأمر بالفرح والهتاف . فخفّوا إلى القوارب وعلى رأسهم « سلڤر » وانقسموا إلى جماعتين ، وبقى فى السّفينة ستّة بحّارة فقلت فى نفسى : إن « سلڤر » قد ترك فى السّفينة ستّة بحّارة فمعنى ذلك أنه لا بدّ عائد إليها فلن تحدث إذن أيّة مناوشة ، فخطر لى أن أذهب إلى الجزيرة فهبطت سلّم السّفينة مسرعاً ، وقفزت إلى الزورق القريب منه وقد بدأ يتحرك فقال لى أحد البحّارة :

ـ « أهذا أنت يا "جم" ؟ »

وبلغ صوته الزّورق الثانى فرأيت « سلڤر » قد تجهّم وجهه فندمت على طيشى وجرأتى . وكان الزّورق الذى ركبته أسرع من الزورق الآخر فتجاوزناه بنحو مئة متر ووصلنا إلى الجزيرة قبله . فوثبت إلى الأرض وسمعت « سلڤر » يصيح بى من عرض البحر :

ـ « انتظر يا "جم" . . . انتظر يا "جم" . . . »

فلم أحفِل بندائه ، وجريت أتوغّل فى الغابات مسروراً من ابتعادى

عن ذلك الشّيطان ، وعن الرّفقاء الذين كانوا معي في الزّورق مغتبطاً بما شهدت حولي من غرابة المكان .

كانت الجزيرة غير مأهولة بالسكان ، فما وقع نظري على مخلوق إلا على بعض الحيوان الخُرْس ، فطُفت بين الشجر ورأيت بعض النّبات الغريب وبعض الحيّات .

أمعنت في التوغّل فوجدتني بإزاء مستنقع ماء نبت على صفحته القصب والنّبات الوحشيّ ، ورأيت القصب يتحرّك فجأة وتطير منه جماعة من البط ، فأيقنت أنه لا بد أن يكون بعض البحّارة قد مر بضفاف المستنقع ، فلم يخطئني الظّنّ وسمعت أصواتاً بعيدة كانت تقترب من مكاني شيئاً فشيئاً حتى تبيّنت منها صوت « سالفر » يحدّث رفيقاً له بلهجة كلها جدّ واهتمام ، فتواريت وراء شجرة سنديان ضخمة فانقطع عنّي صوت الحديث ، فحدّثتني النّفس أن أقترب منهما وأتبين ما يقولان ما دمت قد ركبت هذا المركب الخشن من المجازفة والخطر .

زحفت على يديّ ورجليّ متدارياً بالنّبات والأشجار ، ورفعت بعد قليل نظري من خلال ستار من أوراق النبات فرأيت « سلفر » وزميلا له قد جلسا إلى تلّ أخضر قريب من المستنقع مملوء بالأشجار ، وسمعت ذلك الشّيطان الرّجيم يقول لمحدّثه :

— « لولا منزلتك في قلبي لما حذّرتك . . . »

وسُمِع فى تلك الثّانية صوت رجل تملّكه الغضب ثم تبعته صيحة ألم تنفطر لها القلوب ، فلم يتحرك « سلڤر » لسماعه ذلك الصّوت كأنه كان يتوقّعه ، أما محدّثه فانتفض واقفاً وقال :

ــ « ها هو ذا رجل قتلتموه لأنه لم يجبكم إلى نداء الغدر والخيانة. »

وأدار الرّجل ظهره وانصرف متّجهاً إلى الشاطئ، فما هي إلا خطوات قليلة خطاها حتى قذفه « سلڤر » بحجر ضخم أصابه فى ظهره إصابة قاتلة وطرحه أرضاً ، ورأيت « سلڤر » يتناول عكّازه بخفة النّمر ويقفز به إلى غريمـــه ، ويفرغ فيه رصاص غدّارته ، فهالتنى بشاعة المنظر وبشاعة الخيانة ، فزحفت قليلا قليلا إلى الوراء ثم نهضت وركضت على غير هدى ، وما زلت أركض وأركض حتى وصلت إلى هضبة عالية قامت فيها غابة كثيفة الأشجار يبلغ ارتفاع بعض أشجارها نحوًا من عشرين مترًا .





١٢

رفعت نظرى إلى الهضْبة والأشجار الفارعة فيها ، فرأيت شبحاً قد ظهر من وراء شجرة ضَخْمة وأخذ يهبط إلىّ بسرعة عجيبة وتنهال تحته الحجارة والحصى .

وغشّى الخوف على بصرى فلم أستطع أن أتبيّن أهو دبّ من الدّببة ، أم قرد من القرود المتوحّشة ، أم إنسان من الأناسىّ . فلم أر فيه إلا شبحاً أسود كثير الشّعر ، فسلمت أمرى لله فأمامى هذا الوحش وورائى تلك الوحوش الآدمية ، غير أنى فضلت أن أعرّض نفسى للخطر الذى أعرفه فقد يكون لى منه مَنْجاة وخلاص ، فرجعت أدراجى راكضاً نحو الشّاطئ ،

ولكن الشّبح كان أسرع من البرق فأدركني واستوقفني . . . يا لله ! . . . إنه إنسان . . . قد يكون إنساناً متوحّشاً . . . فلعله أرحم من « سلقر » المجرم . . . . . وهنا تذكّرت أني مسلح بغدارة فهدأ روعي وصمّمت على مواجهة الخطر . . . ولا تسل عن دهشتي عندما رأيت ذلك الإنسان المتوحّش يركع أمامي ويضمّ يديه متوسلا فسألته :

— « مَنْ أنت أيها الرجل ؟ » فقال بصوت أجشّ مضطرب :

— « أنا "بن جن" المسكين . . . لي ثلاث سنوات لم أتحدّث فيها إلى إنسان » .

فحدّقت فيه فوجدته رجلا أبيض مثلي قد لوّحت الشّمس لون جسمه فبدا وجهه غريب الشكل مع عينيه الزرقاوين ، ولكنّه ظاهر البشاشة والوداعة . كان يرتدي أسمالا ممزّقة من ثوب بحّار تخالطها جلود ماعز فقلت له :

— « أنت هنا منذ ثلاث سنوات ؟ أكنت غريقاً لفظه البحر إلى هذه الجزيرة ؟ » فقال :

— « كلا يا عزيزي بل تركني المجرمون أجَنّ رويداً رويداً في هذه الجزيرة . فقضيت هذه السنوات الثلاث أقتات من لحم الشّياه ومن الثمر والمحار » .

ولم يفتأ في أثناء حديثه يتلمّس ملابسي ويتحسس يديّ وينظر

إلى حذائى ، ثم قال لى :

— « وما اسمك يا عزيزى ؟ » . فقلت :

— « اسمى " جم " » . فقال :

— « يلوح لى أنك فتى طيّب القلب يا عزيزى "جم" فأشكرك على عطفك علىّ وسَماعك حديثى ، ويسرّنى أن أكون فى خدمتك . . . واعلم يا عزيزى أنّنى غنىّ . . . غنىّ جدّاً » .

فلم أشكّ عند سَماعى هذا القول منه فى أن العزلة فى هذه الجزيرة قد ذهبت بعقله . فاستأنف كلامه وقال :

— « قلت لك إنى غنىّ جدّاً . . . وسأجعل منك رجلا سعيداً يشكر القدر على أنه أول من قابلنى » .

وعلت وجهه عندئذ مسحة من الكآبة فسألنى قائلا :

— « أخبرنى بالحقيقة يا "جم" . أليست هذه السفينة سفينة " فلنت " .»

فعلمت أن الرجل غير مجنون ، و رأيت فيه حليفاً لنا فقلت له :

— « كلا . ليست سفينة "فلنت" ففلنت قد مات . وبما أنك تسألنى أن أخبرك بالحقيقة فاعلم أن بين بحّارة السفينة جماعة من رجال " فلنت " وإنها لمصيبة كبيرة » . فقال :

— « أليس بينهم رجل مقطوع السّاق ؟ » فقلت :

ـ « أتقصد " سلفر" ؟ » فقال :

ـ « نعم . نعم . هو " سلفر" » . فقلت :

ـ « إنه طبّاخ السّفينة وزعيم العصابة » .

وكأنني ارتحت إلى هذا الرّجل التّاعس فحكيت له كل أخبار رحلتنا ، فداعب رأسي بيده وقال :

ـ « إنك يا "جم" فتى ظريف طيّب السريرة ، فأنت وزملاؤك الأخيار قد وقعتم في مأزق حرج سأنتشلكم أنا منه . ولكن قل لي : أعمدتكم هذا رجل واسع الأفق ؟ أيرضى أن يصحبني معه ويعطيني ألف دينار مثلا من هذا الكنز الذي سأدلكم عليه . لاحظ أني أنا صاحب الكنز ، وهيهات لمخلوق أن يستطيع الوصول إليه دون رغبتي ومساعدتي » . فقلت :

ـ « لا أعتقد أنه يمانع يا صديقي ، فقد كان قرّر أن يعطي كلاً من مساعديه نصيباً من الكنز . . . ثم إننا إذا تخلّصنا من رجال العصابة فنحن في حاجة إليك لتعمل في تسيير السّفينة » .

فارتاح لكلامي وقال :

ـ « اعلم إذن يا عزيزي "جم" أني كنت من بحّارة القبطان "فلنت" وكنت على ظهر السفينة عندما قام هو وستة من رجاله الأقوياء بتخبئة الكنز في هذه الجزيرة ، فقد بقوا فيها ستّة أيام وبقيت أنا وسائر



بحّارة السفينة ننتظر أوبتهم . وفى صباح أحد الأيام رأينا "فلنت" عائداً وحده إلى السفينة ، أمّا رفقاؤه الستّة فقد قتلهم جميعاً على إثر معركة دامية نشبت بينهم وبينه . . . تصوّر . . . واحد ضدّ ستة . . . فلما صعد فى السّفينة سأله مساعده ، وكان اسمه "بيل" وسأله أيضاً رئيس البحّارة وكان "سلفر" عن الموضع الذى خبأ فيه الكنز فلم يُعر سؤالهما التفاتاً ، وأمر بالإقلاع فأقلعنا السّفينة فى الحال » .

واستراح محدّثى قليلا ثم استأنف حديثه قائلا :

— « ومنذ ثلاث سنوات كنت أعمل بحّاراً فى إحدى السّفن ، فمرت بهذه الجزيرة ورست فيها قليلا ، فأغريت البحّارة بالنزول إلى الجزيرة والبحث عن كنز "فلنت" فأطاعونى ونزلنا بالجزيرة على كره من القبطان ، ومكثنا اثنى عشر يوماً نبحث ونجد فى البحث دون جدوى ، فيئس زملائى وعادوا إلى السّفينة وتركونى فى الجزيرة ، وتركوا معى بندقيّة وفأساً ومِعْولا وقالوا لى : ابق فى الجزيرة وابحث عن الكنز وحدك ، وها أنا ذا منذ ثلاث سنوات أهيم على وجهى فى أنحاء هذه الجزيرة . . . ستقول للعمدة إن "بن جن" رجل صالح ، وستلحّ عليه فى أن يصحبنى معه » .

فقلت :

— « سأكون خير رسول منك إلى العمدة ، ولكن ما أرانى أستطيع الرّجوع إلى السّفينة ، فرجال العصابة منتشرون على الشاطئ وسينكّلون بى

تنكيلا » . فقال :

— « لا تخش بأساً فإنى سأعطيك زورقى الخاص ، وهو زورق قد صنعته أنا نفسى ، وهو مخبوء وراء تلك الصخرة البيضاء التى تراها ، فإذا هبط الليل ركبته وسرت به إلى السفينة . . . » .

ثم توقف عن الكلام لأننا سمعنا طلقة مدفع ارتجت لها أرجاء الجزيرة ، فقلت فى نفسى : لا يمكن أن يكون هذا إشارة الرجوع فالشمس لا تزال مشرقة ولن تغيب قبل ساعتين فضلا عن أن الدوى هو طلقة مدفع لا طلقة بندقية كما كان الاتفاق ، فالتفتُّ إلى « بن جن » وقلت له :

— « تعال معى . . . لقد بدأت المعركة » .

وطرقت مسامعنا بعد ذلك طلقات بندقيات ، ولشد ما ساورتنى الدهشة لما حانت منى التفاتة إلى الهضْبة العالية فرأيت رايتنا تخفق فوق الغابة .





١٣

نترك حديث الفتى « جم » قليلا ونستمع للطّبيب « ليفزى » يقصّ علينا جانباً من القصة ويقول :

كنّا فى نحو الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين عندما سار القاربان بالبحّارة إلى الجزيرة ، وكنت أنا والعمدة والقبطان فى المقصورة نتشاور ونتداول فى الأمر ، فقرّرنا أنه إذا أسعفتنا الرّيح فسوف ننقضّ على الرجال السّتّة الذين تركهم « سلفر » فى السّفينة ، ونطلق للأشرعة العنان . ولكن الرّيح كانت راكدة ، وزاد الطين بلّة قدوم أحد خدم العمدة إلينا ليخبرنا أن « جم » قد ذهب مع البحّارة إلى الجزيرة ، فتولاّنا القلق على الفتى

الصّغير ، فصعدنا فى سطح السفينة ، ورأينا البحارة السّتّة جالسين تحت شراع من الأشرعة فى مقدمة السفينة ، فحدقنا النظر فى الشاطئ فشاهدنا البحّارة قد وثبوا من الزّورقين إلى أرض الجزيرة ، وبقى بحّار واحد فى كل زورق للحراسة .

وازداد قلقنا على « جم » فاتّفقنا على أن أصطحب أحد خدم العمدة وأذهب إلى الجزيرة أتسقّط منها أخبار الفتى ، فقفزنا معاً إلى أحد الزوارق وتناولت المجداف واتّجهت بالزورق إلى ناحية بعيدة من الزّورقين بحيث لا يرانا الحارسان .

ترجّلنا من الزورق ، وسلكنا طريق الهضبة العالية ، وكان الحرّ شديداً فأخذ العرق يتصبّب من وجهى ، ولم نكد نصل إلى القمة حتى نعمنا برؤية نبع ماء صاف ، فشربنا منه وبرّدنا غليل العطش ، ثم رأينا وراء النّبع والأشجار المحيطة به منزلا يتسع لنحو أربعين نفراً قد بنى ليكون معقلا للنازلين به ، وشاهدنا كثيراً من الفتحات الصّغيرة فى جدرانه ، فعرفنا أنها فتحات للمراقبة ولإطلاق النار على الهاجمين ، فسررت كل السرور من هذا الكشف ، ولكن نغّص على هذا السرور سماعى صيحات رجل يجود بأنفاسه ، فلم أشأ أن أضيع دقيقة واحدة فى تنفيذ الخطّة التى رسمتها فى ذهنى ، وكانت من وحى الساعة ، فعدت أنا والخادم إلى الزّورق ، وبعد قليل كنت على ظهر السّفينة ، فاجتمعت بالعمدة

والقبطان وأطلعتهما على خطتي فوافقا عليها .

وفى الحال ملأنا زورقين بالأطعمة والسلاح ، ووقف القبطان على مرتفع من السفينة شاهراً غدارة فى كل يد ، ومهدداً البحارة الستة بالموت الزؤام إذا بدرت من أحدهم حركة من الحركات ، فقبعوا فى أماكنهم لا يتنفسون وكانوا عزلا من السلاح فلم يضايقونا فى وسق الزورقين .

وما هى إلا دقائق حتى كنت أنا والقبطان والعمدة وخدمه الثلاثة على أرض الجزيرة ، فنقلنا المؤن والسلاح إلى الحصن الذى تحدثت عنه .

فعلنا ذلك على دفعات متوالية ، فمنا من نقل ، ومنا من حرس الحصن والزورقين ، وفى الدفعة الأخيرة كنت أنا والعمدة عند الشاطئ نهم بحمل ما بقى من البنادق وأكياس المؤن فنظرنا عرضاً إلى السفينة فرأينا البحارة الستة الذين بقوا فيها قد أحاطوا بالمدفع وشرعوا ينزعون عنه غطاءه ويحشونه بالبارود استعداداً لإطلاق النار فقلت للعمدة :

— « يا سيدى العمدة ! إنك ماهر فى إطلاق النار ، فصوب بندقيتك إلى هؤلاء الرعاع فإن إصابة واحد منهم كفيلة ببث الرعب فى قلوبهم » .

فسدد العمدة بندقيته وأطلق النار فأصاب واحداً منهم سقط بعد إصابته صريعاً فقلت له :

— « ثن يا سيدى العمدة . . . ثن فى الحال » .

فنفّذ قولى بلا تردّد واخترق الرّصاص صدر رجل ثان من هؤلاء السّتّة ، غير أن الأربعة الباقين لم يحفلوا بزميليهم اللذين مزق الرصاص جسميهما ، ولا عنوا بإسعافهما بل استمرّوا يعدّون المدفع للإطلاق ، فأدركت أن المقاومة لم تعد تجدى نفعاً ، وأننا من الخطر أقرب من حبل الوريد ، فصرخت فى العمدة قائلا :

— « أسرع يا سيدى ، أسرع لعلنا ندرك الحصن قبل أن يمزّقنا بارود المدفع . . . انبطح أرضاً وازحف معى » .

فجعلنا نزحف على الأرض صاعدين إلى الحصن ، ودوّى المدفع بالدّوىّ الذى سمعه « جم » فوقانا الله منه ولم نصب بأذى ، فنهضنا وجرينا إلى الحصن قبل أن يرمينا المجرمون بطلقة أخرى ، فبلغناه سالمين وكنا فيه مع جماعتنا آمنين ، لأن الحصن ليس على مرأى من رجال السّفينة .

وأثار الدّوىّ فضول رجال العصابة المنتشرين فى الغابات ، فهرعوا كلهم إلى الشاطئ ، وتفاهموا مع رجال السّفينة بالإشارة .

وكان القبطان قد جلب معه من السفينة أشياء كثيرة غير المؤن والسّلاح ، فعمد إلى الرّاية وربطها إلى غصن طويل قطعه من أحد الأشجار ، وصعد به إلى السّطح وركزه وعاد إلينا مطمئناً مرتاح القلب كأنه قام بواجبه العسكرى .

ولم يكد القبطان يدخل علينا حتى سمعنا صفير قذيفة مرّت بسطح

الحصن وسقطت غير بعيد منه ، ثم تبعتها قذيفة أخرى بعد دقائق قليلة فلم تحدث بالحصن أى تلف كان ، فقال العمدة للقبطان :

— « سيدى القبطان ! إن الحصن ليس على مرأى من رجال السفينة فإنما يسددون طلقاتهم إلينا معتمدين على الراية الخفاقة فوق سطح الحصن فهلا أنزلتها ! » فقال القبطان :

— « اطمئن بالا يا سيدى العمدة ، فلن تسمع بعد هذه اللحظة صفير أية قذيفة من القذائف ، فقد رميت بالبارود كله فى البحر قبل أن أغادر السفينة ، ولكن سهوت عن كيس البارود الصغير الملقى إلى جانب المدفع ، وكيفما كان الأمر فالراية شعارنا ومظهر فخارنا وعنوان احتقارنا لطلقاتهم النارية ، فلن أنزلها ولو كان لدى هؤلاء الأوغاد جبل من البارود » .

فأمنا جميعاً على كلامه ، ثم تذكرت أننا تركنا كمية من المؤن والسلاح عند الشاطئ ، فاقترحت أن يتطوع بعضنا بنقلها إلينا ، فهب خدم العمدة إلى القيام بهذه المهمة فصاح فيهم العمدة :

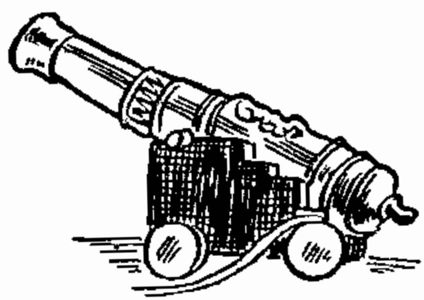
— « شكراً لكم يا رجالى ولكن قد فات الأوان . . . انظر يا عزيزى " ليڤزى " فرجال العصابة قد سبقونا إلى تلك الذخيرة » .

فنظرنا جميعاً إلى الشاطئ ، ورأينا رجال العصابة قد استولوا على الذخيرة التى تركناها ، بل رأيناهم جميعاً مسلحين بالبنادق ، فدهشنا وتساءلنا

من أين هبط عليهم ذلك السّلاح ، وبينما نحن فى وجوم وذهول نحسب ألف حساب للمصير الذى ينتظرنا إذا نفدت منا مؤن الطعام ، ونتأسّف لوعةً على الفتى « جم » بعدما انقطعت عنا أخباره ؛ وإذا بالباب يطرق طرقاً خفيفاً ، وصوت يقول فى شبه الهمس :

— « دكتور " ليڤزى " . . . سيّدى العمدة . . . سيّدى القبطان . . . »

فبادرت إلى الباب وفتحته والغدّارة فى يدى ، فدخل منه « جم » سليماً معافى .





١٤

يتمّ الفتى « جم » القصة ويقول :

لما رأى « بن جن » الراية خفّاقة فوق الحصن ، وقف واستوقفنى وقال :

— « إنهم أصدقاؤك ! » فقلت :

— « من يدرى ؟ لعلهم رجال العصابة ! » فقال :

— « لا أظن " سلفر " يرفع راية السفينة ، فلو شاء أن يرفع علماً من الأعلام فإنما يؤثر العلم الأحمر . . . هم لا شك أصدقاؤك . . . خاضوا المعركة وخرجوا منها ظافرين . . . فوداعاً يا صديقى ! فإن احتجت

إلىّ فإنك تعرف طريقى ، فسوف تلقانى حيث تقابلنا اليوم ، وإن جاء أحد غيرك فعليه أن يجىء وحيداً حاملا فى يده شيئاً أبيض » . فقلت :

— « لقد فهمت . . . إنك تريد أن ترى العمدة أو الطّبيب فلديك ما تقترحه عليهما » فقال :

— « هو هذا يا عزيزى "جم" . ولكن حذار من أن تخوننى وتبيعنى "لسلفر" . . . حذار ! »

ودوّت عندئذٍ طلقة مدفع للمرّة الثانية ثم للمرّة الثّالثة فافترقنا وسار كلٌ منا فى طريق .

توغّلت فى الغابات صُعُداً متوارياً وراء الأشجار ، متنقّلا من مخبأ إلى مخبأ ، فوصلت بعد قليل إلى هضبة عالية أشرفت منها على الشاطئ ، فوجدت رجال العصابة يغدون ويروحون وأصواتهم المنكرة تشقّ عنان السماء ، ووجدت نفراً منهم ينقل بعض المتاع من قاربين راسيين عند شاطئ بعيد يكاد يكون فى سفح المنحدر الذى تخفق فى أعلى قمّته راية جماعتى ، وتابعت السّير فى حذر شديد حتى وصلت إلى الحصن واستقبلنى الأصدقاء بشوق وحماسة .

استرحت قليلا ثم أخذت أقصّ على قومى أنباء المغامرة التى قمت بها.

وحان وقت العشاء فأكلنا ، ثم انتحى الرؤساء الثلاثة ناحية من الغرفة يتحدّثون ويقلّبون وجوه الرأى ، فقرّ قرارهم على أن نبقى متحصّنين فى هذا

المعقل، وأن نقتصد من الطعام ما أمكن ، وأن نتصيّد هؤلاء اللصوص واحداً بعد واحد دون أن نتعرض للخطر .

كان التّعب والإعياء قد بلغا منى كل مبلغ ، فاستأذنت فى النّوم ، وارتميت فى زاوية الغرفة على بعض الأمتعة ، وغرقت بعد دقائق فى سُبات عميق صحوت منه عند الفجر على أصوات جلبة وضوضاء ، فإذا أصدقائى جميعاً قد تناولوا طعام الإفطار ووقفوا متأهبين لكل طارئ ، فعلمت من أحدهم أن رجلا يحمل راية بيضاء يسعى إلينا ، ثم علمت أنه « سلفر » نفسه ، فقفزت قفزة واحدة وفركت عينىّ من أثر النُّعاس ، وجريت إلى إحدى الكوى لأتحقق من شخص القادم إلينا .





١٥

كان على بعدٍ من باب الحصن رجلان : أحدهما يحمل خرقة بيضاء ، والثانى « سلفر » فتقدم القبطان من الباب وقال :

— « من أنتما ؟ قفا أو نطلق النـار . » فصاح « سلفر » :

— « جئناكم رافعين علم الهدنة ! »

فطلب القبطان منا أن نتفرق على أهمّ المنافذ، وأن نصوب السّلاح إلى الخارج، وأن نطلق النار عند أوّل إشارة منه . ثم فتح الباب وغدا ارتاه فى يديه وقال :

— « وماذا تريدان بعلم الهدنة ؟ » فقال حامل العلم :

— « القبطان " سلفر" يا سيّدى يريد منك أن تأتى إلى ظهر السفينة للمفاوضة» . فقال القبطان :

— « لا أعرف قبطاناً يدعى " سلفر " . . . فن هو ومن يكون ؟

فقال « سلفر » :

— « أنا هو يا سيّدى. . . إن هؤلاء المساكين قد اختارونى قبطاناً عليهم بعد فرارك ، (واتّكأ على كلمة فرارك) فنحن على استعداد للطاعة والخضوع إذا بذلت لنا شروطاً موافقة» . فقال القبطان :

— « لست على استعداد لأن أغادر مكانى ، فإن كان لديك ما تقوله فهاته » . فقال « سلفر» :

— « ألا تسمح لى يا سيّدى بالاقتراب منك والجلوس بين يديك ؟ فأنت رجل شريف وتكفينى منك كلمة الشرف بأن لا تمسّنى بسوء» فقال القبطان :

— « لك ذلك . تقدم » .

واعتمد «سلفر» عكازه ، ووثب به فى خفّة القرد حتى صار بين يدى القبطان ، فحيّاه تحيّة كريمة فأعاد القبطان الغدارتين إلى قرابهما وردّ على التحية بأحسن منها وقال :

— « ماذا تريد ؟ »

فأخذ « سلفر» يفيض فى الحديث عنه وعن زملائه ، وعن السّفينة

والرّحلة ، وعن فرار القبطان وتركه بحّارته وسفينته إلى غير ذلك من الكلام الهُراء حتى عيل صبر القبطان فصاح فيه بقسوة وجفاء :

— « وبعد هذه المقدّمة ماذا تريد ؟ » فقال « سلفر » :

— « نريد الكنز . وسوف تحصل عليه . ومقابل ذلك نترككم أحياء . لديك الخريطة أليس كذلك ؟ » فقال القبطان بغضب :

— « قد يكون ذلك » فقال « سلفر » :

— « لِمَ هذا الجفاء يا سيدى القبطان ؟ فما فكّرت قط فى أن أنالك بسوء . وجفاؤك هذا لا يغنى عنكم فتيلا . حسن . لنختصر الكلام . نريد الخريطة التى معك » .

فحملق القبطان فى « سلفر » وصوب إليه نظرات الاستهزاء فاستأنف « سلفر » الحديث وقال :

— « تعطينا الخريطة التى تمكّننا من العثور على الكنز . وتكفّون عن إطلاق النار وإزعاج هؤلاء البحّارة وقت رقادهم ، ولكم الخيار بعد ذلك فى اتّباع إحدى طريقتين : إما أن تبحروا معنا على ظهر السّفينة بعد أن ننقل إليها الكنز ، ولكم علىّ العهد الشريف بأن أنزلكم فى الميناء الذى ترغبونه ، وإما أن تبقوا فى هذه الجزيرة إذا كنتم تخشون غلظة بعض البحّارة ، وتخافون أن يناقشوكم الحساب على ما بدر منكم أمس ، فإن آثرتم الحلّ الثانى وعدتكم وعد رجل حرّ شريف بأن أرسل إليكم أوّل

سفينة ألقاها فى طريقى فتأتى وتنقذكم » .

وسكت « سلفر » قليلا فرأى القبطان جامداً كالصخر لا يتحرّك ولا تبدو على وجهه ملامح الرّضى فقال :

– «ولن نغادر هذه الجزيرة قبل أن نقتسم وإياكم الزّاد الموجود فى السفينة . أقرّ يا سيدى القبطان أنه عرض سخىّ ما كان ليدور بخلدك » .

ثم رفع صوته وقال :

– « وأرجو أن يكون قد سمعنى كل مَنْ فى هذا المنزل فكلامى موجّه إليهم جميعاً » . فقال القبطان :

– « أهذا كل ما عندك ؟ » فقال « سلفر » فى حدّة :

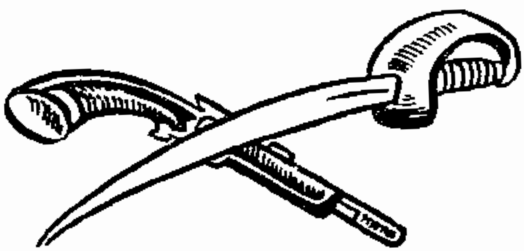
– « هذه كلمتى الأخيرة ، فإن رفضمتوها أمطرناكم وابلا من الرصاص » . فقال القبطان :

– « حسن جدّاً . . . والآن أصغ إلىّ . . . إذا جئتمونى واحداً بعد واحد عُزْلا من السلاح فإنى أعدكم بوضع الأغلال فى أيديكم وإعادتكم إلى الوطن حيث تحاكمون ، فإن رفضتم فاذهبوا جميعاً إلى الجحيم ، فهيهات أن تعثروا على الكنز ، وهيهات أن تستطيعوا تسيير السّفينة ، فما بينكم واحد يعرف أسرارها . ثم إنكم لا تستطيعون التغلّب علينا ، فقد تصيدنا منكم حتى الآن خمسة رجال أصبحوا جثثاً هامدة . . . فتفضل يا سيد "سلفر" غير مطرود ، وثق أنى مرديك حتفك إذا لقيتك

بعد هذه الزّيارة . . . هذه آخر كلمة طيّبة تسمعها منى » .

فعاد « سلڤر » من حيث أتى وقال للقبطان وهو منصرف :

– « لن تمضى ساعة واحدة حتى يكون حصنك هذا طعمة للنّار . . . اضحك ما شاء لك الضحك ، فأنت الجانى على نفسك وعلى إخوانك » .





١٦

بقى القبطان يراقب « سلفر » وزميله وهما يحثّان الخطى إلى رفقائهما حتى تواريا عن العيان ، فدخل إلى الحصن ولم يرواحداً منّا فى مكانه ، فاستولى عليه غضب شديد، وصاح صيحة القائد فى جنوده :

ـ « مكانكم جميعاً » .

فهرع كلٌ منا إلى الموضع المعيَّن له ، وقد علت وجوهنا حمرة الخجل ، فلزم القبطان الصّمت قليلا ثم قال :

ـ « لقد ألقيت على "سلفر" درساً أليماً ، وتركته يعود منتفخ الأوداج من الغضب والحنق ، وقد هدّد بأن يهاجمنا قبل مضىّ ساعة

واحدة . تعلمون أننا أقل عدداً ، ولكننا نحارب وراء مكامننا وهم فى العرّاء ، ومنذ دقيقة واحدة كنت أستطيع أن أقول إننا نحارب فى دقّة ونظام . . . لست أشكّ فى أننا قادرون على التّغلب عليهم إذا أردتم » .

ثم طاف القبطان بالمواقع كلها فسرّه أن يرانا كلنا على تمام الأهبة والاستعداد : البنادق فى أيدينا ، والبنادق الإضافية إلى جوانبنا محشوّة ، والخناجر مجردة وموضوعة فوق شبه منضدة فى وسط الغرفة .

والتفت إلىّ وقال :

— « "جم" ! إنك لم تتناول طعام الإفطار ، فخذ من كيس الزاد ما يحلو لك وكُلْهُ وأنت فى مكان حراستك ، فسوف تحتاج إلى قواك » .

وبعد أن ذرع الغرفة جيئة وذهوباً كأنه يرسم خطّة الدّفاع وقف وقال :

— « أنت يا سيدى الدّكتور ! عليك بحراسة المدخل ، فراقب ولا تعرّض نفسك وأطلق النّار من الفوّهة . . . وأنت يا سيدى العمدة ! عليك بحراسة الجهة الجنوبية . ففيها خمس فوهات ، وبما أنك ماهر فى الرماية فنى مقدورك أن تستعمل الفوهات الخمس يساعدك أحد الخدم فالخطر سيأتينا من هذه النّاحية ، فإن استطاعوا أن يصلوا إلى الفوهات ويطلقوا علينا النار منها دارت علينا الدّوائر » .

واستمرّ يعيّن لكل منا مهمّته ، وأوصانى أن أعاونه فى حشو البنادق .

ومرّت علينا ساعة كاملة فلم يفاجئنا أحد ، فاغتاظ القبطان وصاح :

– « ما هذا ؟ يخيّل إلىّ أنّنا فى مأتم ! »

ثم وجّه الخطاب إلى أحد الخدم وقال :

– « غنّنا شيئاً يا صاح فنحن فى صمت يشبه صمت القبور ! »

فقال له الخادم :

– « سأغنّيك يا سيّدى ! ولكن إذا رأيتُ أحداً مقبلا علينا وأنا أغنّى أفأطلق النّار؟ » فقال القبطان :

– « قلت لك غنّ ولم أقل لك توقف عن إطلاق النار عندما يداهمنا العدوّ » .

فاستعدّ الخادم للغناء ، وما كاد يفتح فمه حتى أطلق النّار من بندقيّته ، فعلمنا أن الهجوم قد بدأ ، وسمعنا بعد ذلك عدّة طلقات مختلفة المصادر انهال رصاصها على الحصن ولكن لم ينفذ منه شيء إلى داخل الحصن ، ثم أعقب ذلك سكون رهيب ، فأطلنا النّظر والمراقبة فما اهتز غصن من أغصان الشجر المحيط بالحصن ، ولا لمع أمام نواظرنا حديد بندقيّة يشير إلى وجود العدو على مقربة منا ، فقطع ذلك السّكوت صوت القبطان وهو يسأل الخادم الذى أطلق النّار :

– « هل أصبت الرّجل ؟ » فقال :

– « كلا يا سيّدى ! . . . كلا يا سيّدى ! » . فقال القبطان :

– « يستحسن فى مثل هذه الأحوال أن نقول الحق . . . »

ثم خاطب الطّبيب سائلا :

– « كم تظنّ عدد الهاجمين من جهتك يا سيّدى الطّبيب ؟ »

فقال الطّبيب :

– « لقد أطلقوا من هذه الجهة ثلاث طلقات وكانت قريبة جداً منا » . فقال القبطان :

– « ثلاث طلقات ؟ ! . . . ومن جهتك أنت يا سيّدى العمدة ؟ »

فقال العمدة :

– « يخيّل إلىّ أنهم أطلقوا من هذه الجهة سبع طلقات أو تسع طلقات » فقال القبطان :

– « إذن يكون الهجوم من ناحيتك . . . أما الطّلقات الأخرى فقد أرادوا بها المناوشة ليشغلونا بها عن موقع الهجوم الأكبر » .

ولم يغيّر القبطان شيئاً من خطة الدّفاع التى رسمها ، ولا أمرنا أن نتجمّع كلنا فى ناحية الهجوم الأكبر فقد قدّر أنه لو أهملنا الدفاع عن المدخل ، وتسرّب منه واحد من هؤلاء الأبالسة لاستطاع أن يباغتنا ويتصيّدنا جميعاً من فوهات الجدار .

وعلى حين فجأة اهتزّت الغابة بدوىّ الرّصاص وزعقات المهاجمين كأنها عزيف الجنّ . هجم بعضهم من ناحية المدخل ، وصوّبوا بنادقهم عليه

فأصيبت بندقية الطبيب وهى فى يده برصاصة حطمتها ، فقفز الهاجمون إلى المدخل كما تقفز القردة .

وهجم بعضهم الآخر من الناحية الجنوبيّة فتلقاهم العمدة وخادمه بوابل من الرصاص فقتل منهم أربعة وهرب اثنان عادا إلى زملائهم الذين كانوا متحصنين بالأشجار يطلقون النار على غير هداية ، ويزعقون ملء حناجرهم ليرهبوا المدافعين ويشجعوا الهاجمين . ومع ذلك استطاع أربعة من الهاجمين أن يصلوا إلى الحصن ، ويصعدوا إلى سطحه ، ويرمونا بالرصاص من فتحات السقف . وكان الطّبيب فى هذه الأثناء يصارع أحد الهاجمين عليه من المدخل ولم يطل بينهما الصراع إذ تمكن الطّبيب من أن يغمد خنجره فى صدر عدوه .

ولكن موقفنا تحرّج فأصبحنا لاندرى أنطلق الرصاص على العدو أم نتدارى من رصاصه ، فقد كنّا إلى دقائق قليلة فى مركز حصين ، وكان عدونا مكشوف الأهداف فانقلب الوضع وكدنا نختنق من الدّخان الذى ملأ غرفتنا ، فدوّى صوت القبطان فى وسط تلك الجلبة وذلك المختنق صائحاً :

— « إلى الخارج يا إخوان . . . إلى الخارج . . . هيّا لحاربهم فى الهواء الطّلق . . . خذوا معكم خناجركم » .

فجريت إلى المنضدة القائمة فى وسط الغرفة ، وخطفت منها خنجراً ، ووثبت إلى خارج الحصن أنعم بنور الشمس المتألق فى كبِد السماء .



وكأنّ خروجنا قد باغت المهاجمين فتقهقروا ، ورأيت الطّبيب يجدّ فى إثر أحدهم حتى أدركه وراء التّلّ ، وكال له ضربة خنجر انتزعت روحه من بين جنبيه .

وجلجل صوت القبطان فى هذه الآونة وهو يصيح :

— « جولوا حول المنزل يا أصحابى . . . حول المنزل » .

فأطعت النّداء ، واتّجهت إلى شرق المنزل وخنجرى مجرد فى يدى فاستقبلنى أحد اللصوص ورفع فى الحال خنجره ليضربنى به الضربة القاضية ، فلمع حدّه تحت أشعة الشمس فلم أخف . ولما رأيتنى لا قِبَلَ لى بذلك العملاق ، قفزت إلى تلّ قريب فوقعت على أرض ليّنة وفقدت توازنى فتدحرجت إلى أسفل التّلّ .

وما إن نهضت حتى رأيت خصمى قد سقط صريعاً برصاصة من بندقية العمدة ، وكان اللصوص الأربعة الذين علوا سطح الحصن قد نزلوا منه ليساعدوا رفقاءهم ، فقتل العمدة منهم اثنين ولاذ الاثنان الآخران بالفرار .

وبعد دقائق معدودات ، انجلى غبار المعركة عن فوزنا المبين ، فقد مات من اللصوص من مات وهرب الباقون ، فعدنا إلى حصننا منهوكى القوى ، وحزنا كل الحزن إذ رأينا فى عودتنا إلى الحصن خادمين من خدم العمدة ممدّدين على الأرض لا حراك بهما ، فبكاهما العمدة بدموع حارّة .

أقبلنا على العمدة نعزّيه عن فقد خادميه الأمينين ونطيّب خاطره وكانت الغرفة قد تبددت سحب الدّخان منها فاستطعنا أن نتنفّس ملء رئاتنا . وعلى حين بغتة صاح فينا القبطان بصوت ضعيف خافت :

— « نتيجة المعركة إذن هو الآتى : فقدنا من رجالنا اثنين وفقد اللصوص تسعة . فإذا استثنينا الفتى "جم" فإننا كنّا ستّة رجال مقابل تسعة عشر رجلا فأصبحنا أربعة إزاء عشرة فلاتزال كفّتنا هى الراجحة.... »

وما كاد يفرغ من كلمته الأخيرة حتى خرّ مغشيًّا عليه ، فهرعنا إليه وفى مقدمتنا الطّبيب «ليڤزى» فإذا الدم ينزف ذراع القبطان وإحدى ساقيه نزفاً غزيراً فقد أصيب فيهما بجراح بالغة .





القسم الرابع

مغامراتى فى البحر

١٧

انقضى النهار ساكناً هادئاً لم نسمع فى أثنائه طلقة نار واحدة وإنما سمعنا أنين الجرحى الذين كانوا يحتضرون ، فعنى الطّبيب «ليڤزى» أوّل ما عنى ، بتضميد جراح القبطان فجراحه كانت بليغة ولكنها غير خطرة ، وأكّد لنا الطّبيب أن القبطان سيشفى منها غير أنه سيظلّ عدة أسابيع لا يقوى على المشى ولا على تحريك ذراعه .

واهتممنا جميعاً بعد ذلك بدفن زميلينا ، ثم بدفن الموتى من اللصوص .

وكان موعد طعام الظهر قد حان ، فناداني الطّبيب ، وخرجنا معاً إلى ساحة الحصن ، وأوقدنا النّار ، وطبخنا عليها ما طاب لنا طبخه ، ثم أكلنا جميعاً بشهوة ونَهَم .

ولما فرغنا من الطّعام ، تحدّث العمدة والطّبيب قليلا على انفراد ، وعمد الطّبيب بعد ذلك إلى قبّعته فلبسها ، وإلى غدّارتيه فتحزّم بهما ، وإلى خنجره فأودعه حزامه ، وإلى بندقيته فوضعها على كتفه ، وخرج من الحصن وتوغّل في الغابات .

وكنت أنا و « جراى » — وهو اسم الخادم الذى بقى على قيد الحياة — جالسين فى زاوية بعيدة من الرّؤساء فقال لى :

— « أترى الطبيب " ليفزى " قد فقد صوابه يا " جم " ؟ » فقلت :

— « لا أظنّ ذلك فهو آخر من يُجَنّ منّا » . فقال :

— « إذن أنا المجنون » فقلت :

— « أراهن على أن طبيبنا تخالجه فكرة يسعى إلى تحقيقها . . . فإن صدقنى الظّنّ فهو ذاهب إلى لقاء "بن جن" » .

وكان الحر شديداً فى تلك الساعة ، فغبطت الطّبيب على خروجه وتنزّهه فى الهواء الطّلق ، وأنفت من ذلك المكان المحاط بالمدافن ، والمنبعثة منه رائحة الدّماء ، فدار فى ذهنى خاطر هو أقرب إلى الجنون منه إلى الرّشد والصّواب ، فانتظرت حتى قام العمدة و « جراى » إلى

القبطان يُغيّران له ضمادات جراحه، فغافلتهما وتناولت كيس الكعك وملأت جيوبي منه ، وأخذت غدارتين وكميّة من الرّصاص، وتسلّلت إلى خارج الحصن ، وجددت فى السّير إلى الصّخرة البيضاء التى قال لى « بن جن » إنه خبأ وراءها زورقه الخاص ، فاجتزت الغابات وطربت لحفيف الشّجر وتمايل الأغصان ، ورميت بنظرى إلى البحر فرأيت أمواجه تعلو وتهبط ، وتتحطّم عند صخور الشاطئ لافظة فيه حلقات الزّبد ، فأدركت أن الرّيح قد بدأت تهبّ من جانب البحر ، وأسفت على أن الرّاية الحمراء تخفق فوق سارية سفينتنا .

وأمعنت النّظر على ذلك البعد فى السّفينة وحولها ، فلمحت عند سلّمها زورقاً جلس « سلفر » فى صدره ، وجلس أمامه رجلان من رجاله شرعا يجدّفان ويسيران بالزّورق إلى الشاطئ .

وكانت الشمس فى ذلك الوقت قد غابت وراء الهضبة التى سمّيت فى الخريطة « بالمنظر البعيد »، وبدأ الضّباب ينتشر فى لوح الفضاء ، ويلفّ الجزيرة بظلامه ، فعجّلت فى مسيرى إلى غايتى أخترق الغاب ، وأعلو الهضاب ، وأنحدر إلى سفوح التّلال ، راكضاً حيناً وزاحفاً حيناً آخر بين الشّوك والعوسج ، حتّى وصلت إلى الصخرة البيضاء المتدارية وراء هضبة عالية من الهضبات الجاثمة عند شاطئ البحر ، فنزلت إلى سفح الصّخرة ، فوجدت لساناً من ماء البحر ممتدًّا بين الصخور إلى

مسافة طويلة تحجبه الجبال العالية القائمة حوله ، فمشيت إلى آخره فرأيت خيمة من جلد الماعز مبسوطة بين صخرتين وتحتها زورق صغير غريب الصّنع ، يكاد يتّسع لرجل واحد ، وفيه لوح من الخشب لعله المجذاف أو هو المجذاف ، فكان ذلك القارب أصغر ما رأيت فى حياتى من قوارب .

كانت خطّتى الجنونية هى أن أستقلّ ذلك الزورق وأسير به فى جُنح الظلام إلى السّفينة ، وأقطع حبل المرساة ، وأترك السفينة فى مهب الريح تعصف بها كيفما شاءت ، وتوجهها الوجهة الّتى تحلو لها . فقد بدا لى أن رجال العصابة بعد هزيمتهم المنكرة فى الصّباح سيستقلّون حتما السّفينة ويهربون بها ، فأردت أن أحول بينهم وبين الهرب ، ولم يَبْدُ لى أن خطّتى صعبة التّنفيذ ، فزوارق السّفينة كلها جاثمة عند الشاطئ والحرس فيها قد تضاءل عددهم فأصبحوا اثنين ليس غير .

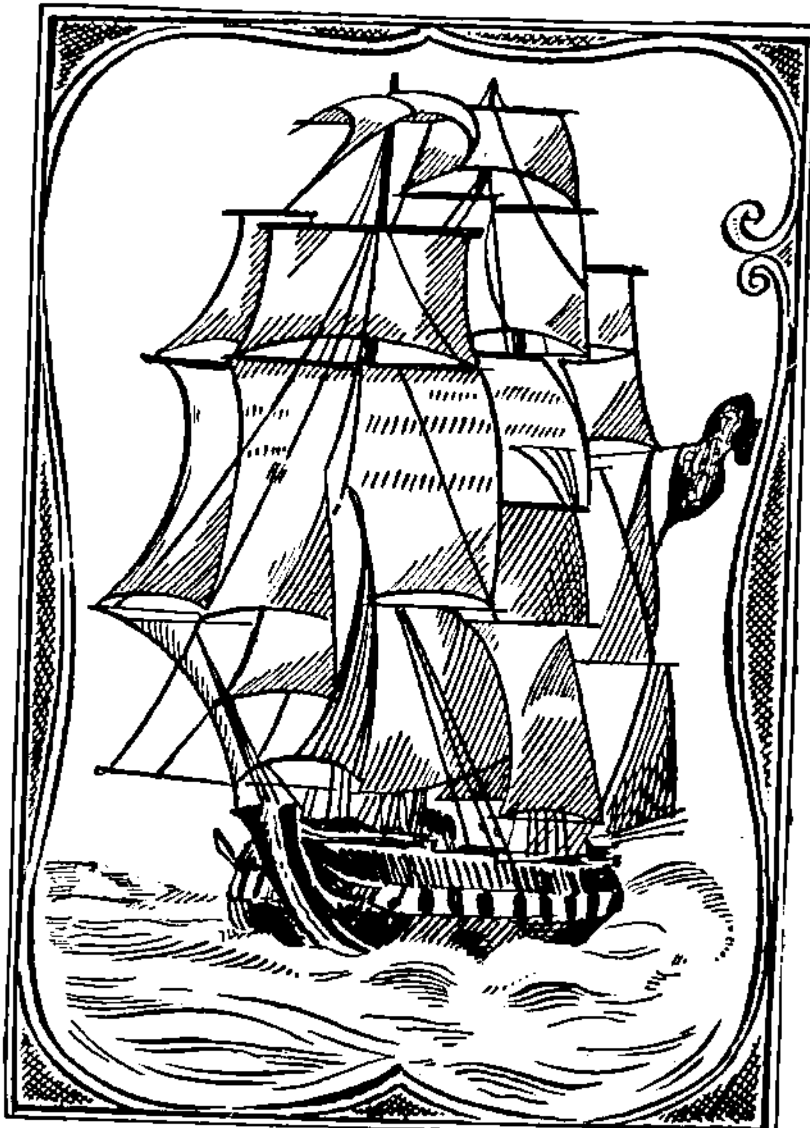




١٨

نشر الظلام أجنحته على البحر والغابة ، فدفعت بالزّورق إلى البحر ، وركبته وأخذت أجدّف وأسيّره فى اتّجاه السّفينة ، ولكنّه كان يدور حول نفسه ولا يتقدّم فى الاتّجاه الذى أريده . فإذا سيّرته شمالا ذهب يميناً ، وإذا رجعت به إلى الوجهة الأخرى دار على نفسه وعاد بى القهقرى ، فكاد اليأس يملأ جوانحى وكدت أعدل عن مهمّتى .

قضيت ساعات طوالا فى صراع عنيف مع ذلك الزّورق الغريب ، فعلّمنى الصراع المتواصل رغبات ذلك الزورق وأهواءه كأنّه مخلوق من المخلوقات له عيوبه وفضائله ، فسررت كل السّرور لما رأيتنى سيّد الزّورق



وهو عبدى المطيع ، فسيّرته إلى حيث أبتغى ، وساعدنى فى مهمّتى قيام الجَزْر وانسحاب الماء ، فركض بى الزّورق ركضاً عجيباً ، ووصلت بعد قليل إلى هامة سوداء قائمة فى عرض البحر ، وأخذت عيناى تألفان رؤية الظّلام، وتتبيّنان تفاصيل السّفينة وجوانبها، وتحدّدان ساريآتها وأشرعتها ومقاصيرها .

قُدْتُ زورقى إلى حبل المرساة فأمسكت به وكان مشدوداً شدّاً قويّاً كما لو كان وتر قوس ، فقلت فى نفسى : ضربة خنجر منّى فى ذلك الحبل المشدود تترك السّفينة ألعوبة فى يد الريّاح، ولكنّنى تذكّرت ما كنت قد سمعته من دروس البحر والبحّارة ، فحبل المرساة إذا قطع وهو مشدود ، كان أخطر من الحصان الجامح ، فلو ركبت جرأتى وقطعته فحظى وحظّ قاربى من السّلامة أوهى من خيط العنكبوت . فهل أعدل عما جئت أفعله ؟ نعم ، فصوت العقل ينادينى بالعدول عن القيام بعمل وخيم العاقبة .

فكّرت فى الموقف وقررت أن أعود من حيث أتيت، وعلى حين غرّة رأيت الحبل يتراخى فى يدى ، والسّفينة تميل قليلا إلى جانبها الذى كنت عنده . ففرحت فرحاً لا يوصف ، ذلك بأن الرّياح قد غيّرت اتجاهها، فقد كانت تهبّ غرباً فأصبحت تهب شرقاً وتميل بالسفينة إلى جانبها الغربى، فجرّدت خنجرى وشرعت أقطع حبل المرساة ضفيرة بعد ضفيرة،

وقبل أن أُعمل خنجرى فى الضّفيرتين الباقيتين سمعت أصواتاً تنبعث من إحدى المقصورات ، فأرهفت السمع فإذا هو حديث رجلين قد عقد السُّكْر لسانيهما فأخذا يتمتمان بألفاظ غير مفهومة ، وإذا أحدهما يفتح نافذة المقصورة ويرمى منها إلى البحر بزجاجة فارغة .

وهبّت الرّياح الشرقية هبّة قويّة فطال تراخى الحبل فى يدى ، فأجهزت على الضّفيرتين الباقيتين ، وحمانى هيكل السفينة من عصف الريّاح فابتعدت عنها بزورقى مطمئناً ، ثم رأيتها تدور على نفسها نصف دورة فى عرض البحر وتقف فى مواجهة الرّيح .

حرّكتْ دورة السّفينة الأمواج فتراقص زورقى فوقها ، ووجدتنى بعد قليل ملتصقاً بمقدّمة السّفينة ، فوقعت يدى عرضاً على الحبل المتدلىّ منها فأمسكت به ولا أدرى لماذا ؟ وحملنى الفضول وحبّ الاستطلاع أن ألقى نظرة إلى داخل السّفينة من خلال النّافذة المفتوحة ، فتعلّقت بالحبل وعلوت به عقدة عقدة حتى حاذيت النّافذة . وكانت الأمواج فى هذه الأثناء قد دفعت بالسّفينة وبجارها الصّغير فانزلقا من مكانهما ، وعجبت كيف لم يدقّ الحارسان ناقوس الخطر ، ولكن عجبى زال فى الحال لمّا رميت بنظرة خاطفة إلى المقصورة ، وشاهدت على ضوء المصباح المعلّق بالسّقف أن الحارسين قد أنشب كلّ منهما أظافره بعنق الآخر ، واستسلما إلى عراك عنيف . فاكتفيت بما رأيت ، وهبطت إلى زورقى ، وأمسكت

بالمجذاف ، وبدأت أجذف وأقود الزّورق فى اتّجاه الشّاطئ الذى نزلت منه إلى البحر ، وكل همّى أن أصل سريعاً إلى الحصن وأخبر قومى بما رأت عيناى .

قدّرت ما قدّرت ، بَيْدَ أن الأمور جرت بغير ما اشتهيت وقدرت ، فما ابتعدت قليلا عن السّفينة حتى طوّحت بى الأمواج والرّياح ، ورمتنى إلى مسافة بعيدة . وكان التّعب قد أخذ منّى كل مأخذ ، والنّعاس يراود أجفانى ، فاستلقيت إلى الزّورق وسلمت أمرى لله ، ونمت نوماً عميقاً .

صحوت عند الفجر وأنا أحمد الله على سلامتى ، فرأيتنى غير بعيد من السّفينة ، ولكن فى غير المكان الذى تركتها فيه قبل أن أستسلم إلى الرّقاد . ولاح لى أن الأمواج كانت قد تلاعبت بها وبزورق قليلا وأن الرّياح قد ركدت بعد ذلك حتى مطلع الفجر ولا تزال راكدة ، فالبحر هادئ والأمواج لا تكاد ترى على صفحته .

جلست فى الزّورق وأخذت أسير به وهو يطيعنى طاعة عمياء حتى كدت أصل إلى الشّاطئ ، فجال فى ذهنى خاطر جديد وقلت فى نفسى : السّفينة متروكة للأقدار فهى تارة تقعى على مؤخرتها . وتارة تميل إلى مقدمتها ، وهى طوراً تقذفها الرّياح شمالا وطوراً جنوباً ، فلو هبّ عليها إعصار شديد لاستقرّت فى قعر البحر . ثم إن الحارسين لا أثر لهما ، فلعلّهما صريعان لا حراك بهما بعد تلك المعركة الفظيعة التى شهدتهما

عليها . فلماذا لا أعود إلى السفينة وأستولى عليها ؟ أعجبنى هذا الخاطر فأدرت زورقى وضربت البحر بمجدافى ضربات قويّة متّجهاً إلى السّفينة ، ولم تكن مهمّتى سهلة فقد كانت السّفينة فى تلك الأثناء تتقاذفها الأمواج نحو الجنوب ، وأنا أحاول اللحاق بها حتى رأيتها وقفت واستدارت على نفسها ، ورأيتنى تجاهها تحت النافذة المفتوحة ، ورأيت المصباح لا يزال موقداً فى المقصورة رغم ضحوة النّهار ، فقفزت إلى الحبل المتدلّى منها ، وتشبثت به وبدأت أصعد عليه ، فسمعت فى تلك اللحظة صوت ضربة صمّاء تحت قدمىّ ، فالتفتّ إلى مصدر الصوت فعلمت أن السّفينة وهى تتحرّك قد صدمت الزّورق فقلبته وقذفت به إلى أعماق البحر ، وهكذا فقدت وسيلتى الوحيدة فى الهرب والنّجاة .





١٩

تسلّقت الحبل حتى بلغت حاجز السّفينة فتشبّثت به وقفزت منه إلى سطح المقدّمة ، واستويت واقفاً أجيل الطّرف فى زواياه كلها ، فما أحسست بوجود مخلوق حيّ ، وإنّما رأيت الغبار قد افترش السّطح ، وآثار الأقدام بارزة فيه ، ورأيت كذلك بعض الزّجاجات الفارغة مطروحة هنا وهنا بلا حياة ولا روح .

وعصفت الرّيح فجأة فطوت الشّراع الذى كان يخفى عنى بقيّة مشاهد السّفينة ، فشاهدت على سطح المؤخّرة أحد الحارسين ممدّداً على الأرض مبسوط الذّراعين على شكل صليب ، تبدو أسنانه من خلال

شفتيه المفتوحتين ، وشاهدت الثّاني مستنداً إلى حاجز السّفينة ، وقد تدلّى رأسه إلى صدره ، وانبسطت ذراعاه أمامه ، وعلت وجهه صفرة الأموات .

حدّقت فيه فعرفته فكان يدعى « هنس » ثم تحرّك فجأة وزفر زفرة شديدة تدلّ على خَوَر القوى والألم ، فأخذتني الشّفقة عليه ، ولكني تذكّرت أنه كان أحدَ المتحدثين عند صندوق التّفاح ففارقتني الشّفقة والرّحمة .

تقدّمت منه قليلا قليلا وقلت له متهكّماً :

— « كيف حالك يا سيّد "هنس" ؟ »

فلم يجب بحرف ، بل نظر إليّ نظرة فاترة ، فقد كان أضعف من أن تبدو على وجهه أيّ علامة من علامات الدّهشة والاستغراب ثم قال بصوت خافت :

— « جرعة ماء ! . . جرعة ماء ! . . . »

فجئته بقدح ماء فشربه متنهّداً ، ثم تركته ونزلت إلى مقصورة القبطان ، فما وقعت عيني قطُّ على فوضى تحكي الفوضى التي لمستها فيها : فالأمتعة مبعثرة ، وزجاجات الخمر الفارغة تملأ أرضها ، والكراسي محطّمة ، والخزانات في جدران الغرفة مهشّمة ، ومحتوياتها منثورة في أطراف الغرفة كأنّهم بحثوا فيها عن خريطة الجزيرة ظنّاً منهم أنها في إحدى تلك الخزانات .

هبطت من المقصورة إلى القبو ، فكان مثلها فوضى واضطراباً ، فتناولت من أكياس الزّاد بعض الثمار المجفّفة والكعك وقطعة من الجبن ، وصعدت بها إلى السّطح . فجلست قرب « هنس » ولكن على أبعد من متناول يده ، وشرعت آكل فى لذّة وغبطة فقلت له :

— « هل أنت جريح يا "هنس" ؟ » فقال :

— « لو كان ذلك الطبيب المنحوس هنا لشفانى سريعاً . . . ولكنى سيئ الحظ . . . أمّا هذا الوغد (وأشار إلى الرّجل الممدّد على الأرض) فيمكن أن تعدّه فى مصاف الأموات . . . وأنت من أين جئت؟ » فقلت :

— « جئت لأستولى على السّفينة يا سيّد "هنس" فأرجو أن تعدّنى قبطانها حتى صدور أوامر أخرى » .

فنظر إلىّ نظرة جافّة ولم ينبس ببنت شفة . فاستأنفت حديثى وقلت :

— « أريد أولا أن أتخلّص من هذا العلَم الأحمر وجمجمته » .

وجريت إلى السّارية وأدرت بكرتَها ، وأنزلت العلم . ونزعته من حباله . ورميت به فى البحر ثم عدت إلى « هنس » وقلت :

— « ها نحن قد تخلّصنا من علم "سلفر" » .

فحدجنى بنظرة فاحصة لا تخلو من الحيلة والدهاء دون أن يرفع رأسه المتدلّى على صدره وقال :

– « لا يمكنك يا قبطان "جم" أن تستغنى عنّى إذا أردت أن تقود السّفينة إلى الشاطئ وتنزل بالجزيرة ، فلنتفاوض إذن ! » فقلت :

– « حبًّا وكرامة ، إنى مستمع لك تكلّم . . . » فقال :

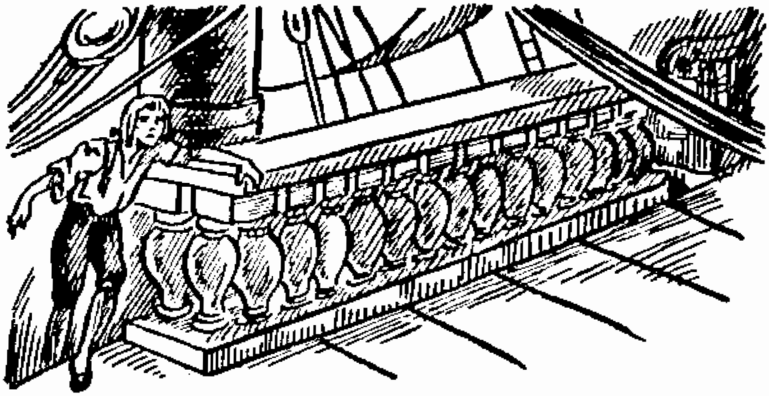
– « جئنى بطعام وشراب ، وبقطعة قماش أو منديل أضمد به جرحى ، وأنا أعلمك كيف تقود السفينة . . . » فقلت :

– « حسن . اتفقنا . ولكن لا أريد أن أذهب بالسفينة إلى الميناء الذى رست فيه ، وإنما أريد أن أقودها إلى الميناء الشمالى » . فقال :

– « اذهب بها حيث شئت ، فما كنت لأعترض سبيلك . . . »

وبعد دقائق ثلاث كانت السّفينة تسير إلى شمال الجزيرة يساعدها المد على بلوغ هدفنا ، وكان غرضى أن أقف بها قريباً جداً من الشاطئ حتّى إذا حان موعد الجزر وتراجعت المياه عنها استطعنا النّزول إلى البرّ .





٢٠

تمكنت من أن أسير بالسّفينة إلى الميناء الذى قصدته ، وعرفت كيف أرسيها دون مرساة معتمداً على إرشاد « هنس » ونصائحه ، فلما بلغنا الهدف ، جلسنا معاً نتناول الطعام فى صمت وسكون منتظرين موعد الجزر . فالتفت إلىّ « هنس » متبسّماً تلك الابتسامة التى كانت تقلقنى وتثير فى نفسى الرِّيب وقال :

– « سيدى القبطان ! إن منظر هذه الجثّة مطروحة على السّطح ليس من شأنه أن يزيّن السّفينة ويزخرفها ، فهلاّ رميت بها فى البحر ؟ ! » فقلت :

— « لست من القوّة بحيث أستطيع أن أحمل جثة وألق بها فى البحر ، فلم أتعوّد مثل هذه الأعمال . . . ولست أرى ما يحول دون بقائها هنا وقتاً قليلا . . . » فقال وهو يغمز بعينيه :

— « يا سيدى "جم" ! إن هذه السفينة سيئة الطالع منكودة الحظ ، فقد قتل من بحارتها عدد كبير » فقلت :

— « ليرحمهم الله ! » فقال :

— « يا سيّدى "جم" ! أريد أن أسألك معروفاً فهل تسمح لى به ؟ » فقلت :

— « وما هو ؟ سأجيبك إليه إن كان فى مقدورى ! » فقال متردداً :

— « هل لك أن تنزل غير مأمور إلى القبو وتأتينى بزجاجة خمر تنفخ فىَّ روح القوّة والنشاط ، فإنى أشعر بقواى تتلاشى وتضمحل ! »

فكرت فى نفسى أن الرجل يبيت لى أمراً من الأمور فتردده فى الطّلب غير طبيعى . والطلب نفسه إنما هو عذر من الأعذار ليحملنى على أن أغادر سطح السفينة . . . ترى أىّ فكر جهنّمى يراود ذهنه . . . إنه يتجنّب النظر إلىّ ... فلو رآه طفل لأدرك أنه يدبّر حيلةً من الحيل وأنه يخفى تحت مظهره المستضعف شرًّا مستطيراً فتغابيت . وقلت له :

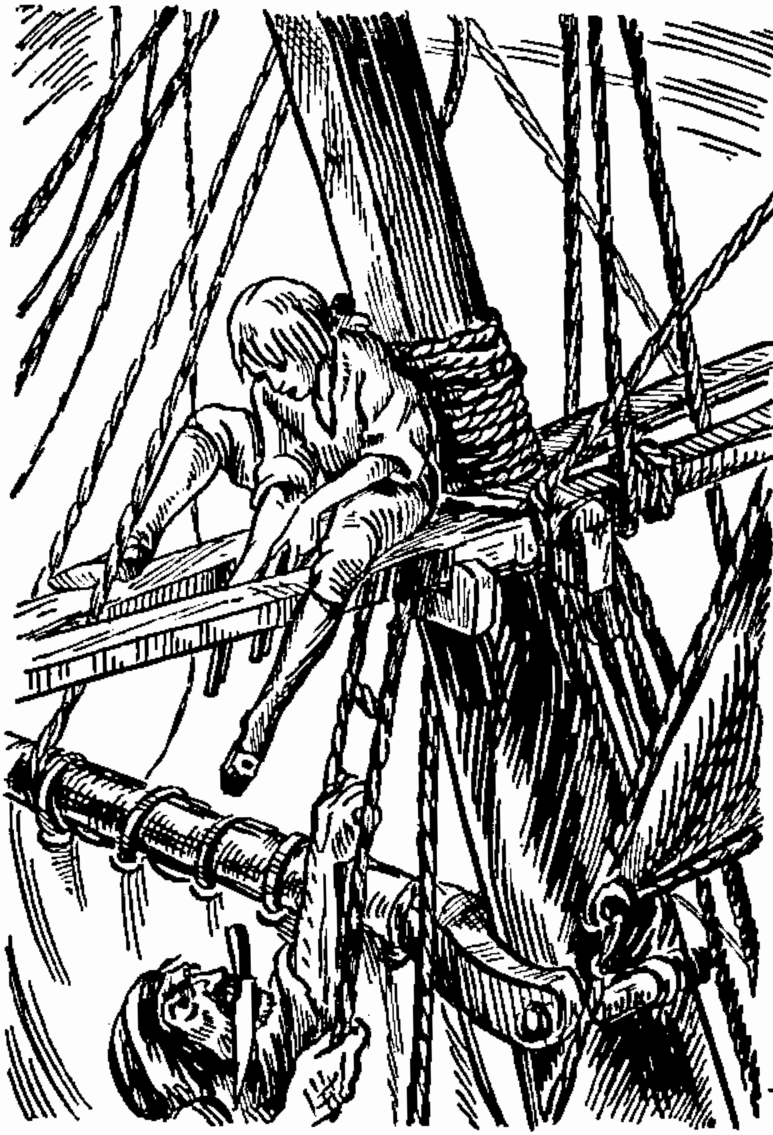
— « طلبك مستجاب يا سيد "هنس" ولكنك ستنتظرنى قليلا لأنى لا أعرف مكان الخمر فى السّفينة » .

ووثبت من مجلسي وذهبت إلى السلم المفضي إلى المقاصير ، ونزلت منه بضع درجات . وأخذت أضرب بقدميّ عليه لأوهمه أني نزلت إلى آخر السلّم . وفي الحال خلعت حذائي . وعدت إلى السّطح ، وتداريت وراء الشّراع . وأخذت أراقبه من وراء الشّقوق فرأيته قد زحف على يديه وركبتيه . وكان الزحف قد آلمه ونكأ جراح ساقيه فأنّ من الألم ، ولكنه حاول أن يخنق أنينه إلى أن بلغ مجموعة من الحبال . فالتقط من تحتها خنجراً صغيراً ملوّثاً بالدّم حتى مقبضه . ففحصه وأمرّ حدّه على يده ثم أخفاه بين طيّات صداره . وعاد زاحفاً إلى مكانه .

عرفت ما أريد أن أعرف . فالرجل قادر على الحركة وهو الآن مسلّح . ولئن عانى ما عانى للوصول إلى غرضه إنه لا شك قد صمّم على اغتيالي . فما هو فاعل بعد ذلك؟ فإمّا أن يزحف من الشّاطئ إلى معسكر أصحابه الذين نصبوا خيامهم حول المستنقع ، وإمّا أن يوقد النّار على سطح السّفينة فيراها أصدقاؤه فيخفّوا إلى إنقاذه .

وبينما كنت مستسلماً إلى مثل هذه الأفكار ، نزلت مسرعاً إلى مقصورة القبطان ولبست فيها حذائي وتناولت منها زجاجة خمر ، وصعدت إلى سطح السفينة فرأيته منطوياً على نفسه جالساً جلسته التي تركته عليها ، فناولته زجاجة الخمر فأخذها مني وكسر عنقها وكرع منها كمّيّة كبيرة .

وأحببت أن أبتعد عنه فذهبت إلى مقدّمة السّفينة أراقب منها البحر ،

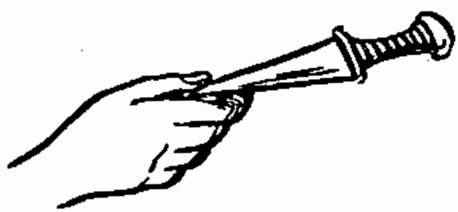


وأرى أين نحن من الجَزْر ، وخيّل إلىّ وأنا منحنٍ فوق حاجز السّفينة أنى أسمع حركة بعيدة ورائى ، فاستدرت مسرعاً فإذا « هنس » قد بلغ منتصف المسافة التى تفصلنى عنه والخنجر مجرّد فى يده اليمنى ، فصاح كل منّا صيحة شديدة : كانت صيحتى مبعثها الخوف ، وكانت صيحته خُوار ثور هائج ، فتابع سيره إلىّ وراء الشراع فوقعت يدى على البكرة المتحرّكة فقذفته بها فأصابته فى صدره وطرحته أرضاً ، وقبل أن ينهض من كبوته كنت أخرجت من جيبى إحدى غدّارتىّ وصوّبتها إليه ، فلم يحفل بها بل نهض يريد متابعة الهجوم ، فضغطت على زناد الغدارة فلم تنطلق القذيفة لأن ماء البحر كان قد بلل البارود فعنفت نفسى كل التّعنيف على طيشى وإهمالى .

وكأن مواجهة الخطر قد بعثت فىّ الحزم والشّجاعة ، فهتف بى هاتف يقول : أنّى لهذا العجوز الجريح أن يدركك وأنت فتى فى خفّة الطّيور ، وسطوح السفينة عريضة واسعة ؛ فأخذت أقفز من مكان إلى مكان ، وهو يحاول أن يلحق بى حتى رأيتنى فى وقت من الأوقات عند مقدمة السفينة وهو قريب منّى جدّاً ، فلم أشعر إلاّ والسّفينة قد مالت ميلا شديداً وغاصت مقدّمتها فى رمال الشّاطئ ، فوثبت وثبة هائلة إلى السارية وتعلقت بها . أما غريمى ففقد توازنه وتدحرج إلى البحر ، واصطدم رأسه بالدفّة وهوَى يتدحرج فحطّمته وهوى إلى الماء جثة هامدة . كذلك

تدحرجتْ جثّة زميله عند ميْل السفينة فتلقّفتها المياه وذهبت بها إلى الأعماق .

وهكذا أصبحت سيد السفينة بلا منازع ، فنزلت من السّارية فى خفّة وتؤدة ، وقفزت منها إلى مكان سليم لم تبلّله المياه ، وشرعت أذرع السطح الثّانى فخوراً مزهواً ، وأتمثّل دهْشة العمدة والطبيب والقبّطان عندما أهبِط عليهم وأقول لهم : لقد جئتكم وحدى بالسّفينة فخذوها .





٢١

انحسرت المياه بفعل الجزْر عن الشّاطئ ، فقِستُ بنظرى عمق الماء المحيط بمقدّمة السّفينة فوجدته لا يزيد عن متر ، فنزلت أخوضه حتى وصلت إلى الشّاطئ . وكانت الشّمس توشك أن تغيب ، والهواء يهب عليلا بارداً يحمل فى طيّاته نفحات الأشجار .

وكنت مشوقاً كل الشّوق إلى بلوغ الحصن ولقاء رفقائى ، فحثثت الخطى منحدراً من شمال الجزيرة إلى جنوبها ، والليل قد اشتدت ظلمته ، والنّجوم لا تكاد تبين فى صفحة السّماء . وبقيت أتعثّر وأنهض ، وأكبو فى الحفر ، وأغوص فى الأشواك حتى طلع القمر وأضاء لى السّبيل ،

فاستطعت أن أجدّ فى السّير إلى الحصن .

ولاح لى فجأة خلال الأشجار البعيدة نور أحمر يعلو وينخفض ، كأنه لهب نار تخمد شيئاً فشيئاً .

وصلت أخيراً إلى الحصن فرأيت واجهته ينيرها ضوء القمر الباهت ، فى حين كانت النّار تتّقد وراء جدرانه ، وترسل إلى الفضاء ذلك الشّعاع الأحمر الذى لمحته عن بعد .

دخلته على أطراف أصابعى فدهشت إذ رأيت المدخل لا يحرسه أحد ، فلو كان « سلفر » هو القادم لا « جم » لاصطادهم واحداً واحداً فى يسر وسهولة ، وازدادت دهشتى لما دخلت الغرفة وسمعت غطيط النّائمين ، فقلت فى نفسى عجباً أينامون ويتركوا الأبواب مفتوحة ولا يوكّلوا أحداً بالحراسة ؟

ذهبت توًّا إلى المكان الذى تعوّدت أن أنام فيه ، وأنا أفكّر فى دهشة القوم عندما يستيقظون فى الصباح ويرون « جم » بينهم ، فاصطدمت فى طريقى بساق ممدودة ، فصحا صاحبها وصاح متألّماً ، فاستيقظ بقيّة النّوّام ، وسمعت صوت « سلفر » يشتم ويصيح :

— « من هنا ؟ »

فاستدرت على أعقابى هارباً ، فاصطدمت بآخر ووقعت فى حضنه فأطبق ذراعيه علىّ وقال :

– « هو فى قبضتى » .

وجأر « سلفر » عندئذ وصاح :

– « هات المشعل يا "ديك" ! »

فخرج أحدهم وعاد بعد دقائق وفى يده مشعل يتّقد اتّقاداً . فألقيت نظرة سريعة حولى فعلمت أن رجال العصابة قد استولوا على الحصن وعلى ما فيه من أسلحة وزاد ، ولكنّنى لم أجد أثراً لأسير ، فتوجست خوفاً من أن يكونوا قد هلكوا جميعاً ، وأنّبنى ضميرى على أن لم أكن بينهم لأموت معهم .

أجلت طرفى فى الحاضرين فإذا هم خمسة لا غير ، و « سلفر » سادسهم فنظر إلىّ وقال :

– « مرحباً بك يا "جم" ! »

ثم وجّه الخطاب إلى رفاقه وقال :

– « عودوا إلى النّوم ! إن صديقنا "جم" يعذركم ولا يريد أن تحرموا النّوم من أجله ! »

فعاد كل إلى فراشه ، واستأنف « سلفر » حديثه معى فقال :

– « إنك تعجبنى يا "جم" ، فأنت فتى ذكىّ شجاع قدرت فيك الذّكاء والشّجاعة منذ الساعة الأولى التى قابلتك فيها ... وكم تمنّيت أن تنضمّ إلينا حتى جاء الوقت الذى سيكرهك على ذلك، فالقبطان حانق

عليك أشدّ الحنق ، والطّبيب يصفك بنكران الجميل ، فأنت لا تستطيع أن تعود إليهم ، فإمّا أن تنخرط فى سلك جماعتى وتنضوى تحت لوائى ، وإمّا أن تؤلّف لك حزباً خاصّاً تكون أنت فيه الرّئيس والأعضاء » .

فسرّنى هذا الكلام سروراً عظيماً فقد أيقنت منه أن أصدقائى أحياء يرزقون ، وعاود « سلڤر » الحديث فقال :

— « لا تظن أنى أهددك ، فأنا رجل لا أحب التهديد وإنما أحب المناقشة والمفاوضة ، فلك ملء الحرّية فى أن تقول لا ، وفى أن ترفض الانضمام إلينا » .

لم يخدعنى هذا الكلام المعسول لأنى كنت أعرف ما ينطوى تحته من وعيد وخطر ، فسألته بصوت مضطرب :

— « أتنتظر منى ردّاً على دعوتك ؟ » فقال :

— « لا تتعجّل فى الجواب .. تريّث ما شئت ... فصحبتك ممتعة » .

فجمعت قوائم شجاعتى وقلت :

— « من حقّى قبل أن أجيب بنعم أو لا أن أعلم لماذا أنتم هنا ؟ وأين أصدقائى ؟ » فقال « سلڤر » فى وداعة :

— « اعلم يا سيدى "جم" أن الطّبيب "ليڤزى" قدم إلينا صباح أمس وراية بيضاء فى يده وقال : "يا قبطان سلڤر ! إنكم فى مركز حرج فالسّفينة قد رحلت" فخرجت إلى الشاطئ وتبيّنت صحّة كلامه ،

فالسّفينة كانت قد رحلت ، ثم قال لى : "لنتفاوض" فتفاوضنا وها نحن أولاء هنا ، أمّا هم فقد رحلوا ولا أدرى إلى أين » . فقلت له :

— « أهذا كل ما عندك ؟ » فقال :

— « هذا كل ما يهمّك أن تعرفه يا ولدى » فقلت :

— « والآن أعلىّ أن أختار ؟ » فقال :

— « والآن عليك أن تختار » . فقلت :

— « إنى فتى سليم العقل فلست مجنوناً ولا أحمق ، وإنى لأعرف ماذا يجب أن أختار وليكن ما يكون . . . لقد شاهدت موت كثيرين منذ قابلتكم ، فما عدت أحفل بالموت ولا أكترث له . . . ولكن علىّ أن أقول لك إنكم جميعاً فى موقف حرج جدًّا : فقدتم السّفينة ، وفقدتم الكنز ، وفقدتم كثيراً من رجالكم وأخفقتم فى رحلتكم . . . أتريد أن تعرف من كان السّبب فى هذا كله ؟ . . . أنا هو السّبب ! كنت مختبئاً فى برميل التّفّاح لما سمعتك تتحدّث مع "ديك" ومع "هنس" النّائم الآن فى أعماق البحر ، فلم تنقض ساعة من الزمن حتى أعدت حديثكم حرفاً حرفاً على أصدقائى . . . أمّا السفينة فأنا قطعت حبل مرساتها ، وأنا الذى قتلت رجالها ، وأنا الذى قُدْتُها إلى مكان هيهات أن تعرفوه . . . تغلّبت عليكم فى جميع هذه المراحل ، فأنت اليوم لا تخيفنى . . . تستطيع أن تقتلنى ، وتستطيع أن تتركنى وشأنى ، فإذا أخليت سبيلى وأبقيت على

حياتى فسوف أنسى الماضى ، وسوف أجتهد فى أن أنقذ عنقك من المشنقة يوم تمثل أمام المحكمة متّهماً بالقرصنة . . . فاختر لنفسك ما يحلو » .

توقّفت عن الكلام لأن أنفاسى كادت تنقطع ، ولشد ما دهشت من جمود هؤلاء الناس الذين يسمعوننى فما تحرّك منهم أحد كأنهم نعاج ، فتابعت حديثى وقلت :

— « والآن يا سيد " سلفر " . . . أعتقد أنك خير من يسمعنى ، فإذا قدر لى أن أموت فأرجو أن تخبر الطبيب " ليفزى " بما سمعت ورأيت » . فقال « سلفر » :

— « سأقوم بما طلبت . . . سأبلغ الطّبيب " ليفزى " » .

وكانت لهجته غريبة جداً ، أتُراه يهزأ بى أم تراه أكبر فىّ الشّجاعة والإقدام ؟ وعلى الأثر نهض أحد هؤلاء الأوباش واستلّ خنجره وقال وهو يسبّ ويشتم :

— « لينل إذن جزاءه ! » فصاح فيه « سلفر » :

— « صه أيها الخنزير ! أظننت نفسك الرئيس هنا ؟ ! لئن شققت عصا الطّاعة وحاولت أن تعكّر صفو مزاجى لأرسلنّك إلى حيث أرسلت الكثيرين من أمثالك منذ ثلاثين سنة إلى اليوم . . . فما من رجل عارضنى وبقى حيًّا يُرْزَق . أفهمت ؟ . . . أفهمت ؟ »

فجمد الرّجل فى مكانه كأنه سُمّر فيه ، ولكن دوّى فى الغرفة صوت رجل آخر يقول :

ـ « لقد طالما تغابينا وتحمّلنا خداعك يا "سلفر" ! » فقال «سلفر» :

ـ « أيها السّادة أتوافقون على هذا الكلام ؟ ما بالكم ساكتين ؟ ! أقدّر لى أن أعيش حتى اليوم لأسمع مثل هذا التّطاول علىّ ؟ ليقدم أشجعكم وأنا أريه ما لون بطنه ! »

فلم يتحرّك أحد فأردف وقال :

ـ « انتخبتمونى رئيساً عليكم فدعونى أتصرّف . . . هذا الفتى يعجبنى وهو أفضل من كثيرين منكم ، والويل لمن يمسه بسوء ! »

فسرت فى الحاضرين همهمة خرجوا بعدها إلى ساحة الحصن يتشاورون فيما بينهم ، فلما خلا المكان قال لى « سلفر » :

ـ « سأحميك من هؤلاء الأوغاد ، وستحمينى من المشنقة وتكون لى شاهداً عدلا يوم أمثُل أمام المحكمة . . . إنى أعلم أن الرّحلة قد أخفقت ، وأننا مقبلون على أخطار وحوادث جسام . . . ولكن لماذا أعطانى الطّبيب "ليڤزى" الخريطة ؟ »

فبدت على وجهى علامات الاستغراب الصّحيح فعرف أنى خالى الذهن من هذا الأمر فقال :

ـ « إن وراء ذلك شيئاً ما . إن وراءه غرضاً يخفيه الطّبيب ،

فطبيبكم رجل ألغاز وأسرار » .

فسكتّ ولم أجب ، وأخذت أضرب أخماساً بأسداس لأعرف لماذا نزل الطّبيب عن خريطة الجزيرة والكنز إلى هذا الرّجل ! !





٢٢

طال تشاور القوم فى ساحة الحصن ، فقمت إلى إحدى فتحات الجدار فرأيتهم ملتفّين حول واحد منهم يتحدّثون ويتناقشون ، ورأيت فى يد هذا الذى التفوا حوله خنجراً يلمع فى ضوء القمر الباهت ، وأدهشنى أن أراه يحمل فى يده الأخرى كتاباً ، فما شأن الكتاب عند هؤلاء السّفاكين ؟ ! ثم نهضوا جميعاً عائدين إلى الغرفة فرجعت إلى مكانى وقلت « لسلفر » :

— « إنهم راجعون إلينا ! » فقال :

— « ليرجعوا ! فلا يزال فى جعبتى حيلة تمكّننى منهم ! »

وفتح الباب وظل الرجال الخمسة واقفين عند العتبة متساندين متلاصقين ، حتى دفعوا واحداً منهم إلى الأمام، فتقدّم متردّداً رافعاً يده اليمنى ، مقفلا قبضتها ، فصاح فيه « سلفر » :

— « تقدم يا عزيزى تقدم فلن آكلك ! أعطنى ما فى قبضتك وثق أنى لن أؤذيك ، فإنى رجل يعرف النظام ويتقيد بلوائحه » .

فشجّع هذا الكلام الرجل فأقبل على « سلفر » ووضع فى يده ما كان يُطبق قبضته عليه، وعاد إلى رفقائه » .

نظر « سلفر » إلى ما وضع فى يده وقال :

— « "العلامة السوداء" ! هذا ما كنت أحسبه ! ولكن أين وجدتم الورق ؟ لا شكّ أنكم انتزعتموه من الكتاب المقدس الذى أخذناه من مقصورة القبطان ! فمن جرؤ على هذا العمل المنكر ؟ » فقيل له :

— « "ديك" ! » فقال :

— « إنى أرثى لحالك يا "ديك" وأشفق عليك من سلسلة المصائب التى ستحلّ عليك . . . لقد دنست الكتاب المقدّس وازدريت به بنزعك ورقة منه ! »

فرأيت فى ضوء المشعل الذى بدأ يخمد أن صفرة الخوف والوجل قد عصفرت وجه « ديك » فأردف « سلفر » وقال :

ــ « وبعدُ . . . إنكم تريدون خلعى ، ولكن ليس بمثل هذه السهولة يخلع الزّعيم ، فأنا رجل أعرف الأنظمة واللوائح . . . لا يمكن أن تخلعونى إلا بعد أن تواجهونى بالتّهم وأردّ عليها واحدة واحدة » .

فانبرى من الجمع رجل طويل القامة ، ولعله كان المرشح لتولى الزعامة بعد « سلفر » وقال :

ــ « هذا ما سنفعله : نتّهمك يا "سلفر" بأنك كنت دائماً حجر عثرة فى سبيل نجاحنا . مكّنت أعداءنا من الهرب ومغادرة هذا الفخّ دون مقابل ، فما الذى حملهم على ذلك ؟ لست أدرى ، ولكن لابد أن يكون لهم منه هدف خفىّ ، ثم منعتنا من أن نتبعهم . لماذا ؟ لأنك أردت أن تظهر أمامهم فى مظهر السيّد الشّريف . وأخيراً تحول بيننا وبين الفتك بهذا الفتى فهو واحد من أعدائنا . . . » فقال « سلفر » :

ــ « أهذه هى كل التّهم يا "جورج" ؟ » (وكان هذا اسم المتحدث) فقال « جورج » :

ــ « أعتقد أنها تكفى لخلعك من الزعامة على الأقل ! » فقال « سلفر » :

ــ « تسرّعت يا عزيزى فى الطموح إلى الزّعامة ، فما أنت أهل لها ، وعليك أن تنتظر فرصة أخرى ، ولكنّنى مع ذلك أردّ على التّهم بنداً بنداً . اسمع يا عزيزى واسمعوا يا إخوان :

تقولون إنى كنت حجر عثرة فى سبيل نجاحنا ، ولا إخالكم تنكرون

أن الأمور لو سارت على ما دبّرت ورسمت لكنّا الآن على ظهر السّفينة منتفخي الجيوب بالمال والذّهب .

تقولون إني سمحت لأعدائنا بالهرب من هذا الفخّ ، ولا أظنكم نسيتم أنكم جئتم إليّ تريدون التّسليم ، فلما أقبل علينا الطبيب "ليفزى" مفاوضاً قبلت مقترحاته فتمكنا من الاستيلاء على كمّيّات الزّاد والطعام ، وقبلنا أن يزورنا من حين لآخر يعودنا ويشرف على صحتنا ، ولولاه لكانت جراحاتكم حتّى هذه الساعة عميقة الغور تنزّ بالدم والألم » . فقاطعه « جورج » قائلا :

— « وهذا الفتى ؟ لماذا تمنعنا من التّنكيل به ؟ » فقال « سلفر » :

— « لو كنت تصلح للزعامة لعرفت لماذا . قدّر أن أعداءنا هبط عليهم العون من أبواب السّماء أو من طبقات الأرض ، فبأيّ سلاح نحاربهم . هذا الفتى هو سلاحنا . . . إنه رهينة بين أيدينا نقايض عليه بسلامتنا ».

وفعل كلام « سلفر » فعله فى نفوس زملائه ، وأيقن « جورج » أنه مغلوب على أمره وأن الزعامة قد طارت من يديه ، فحاول محاولة أخيرة فى أن يفحم « سلفر » وينتصر عليه فقال :

— « كل هذا حسن . ولكن لماذا لم تشأ أن نتعقّب أعداءنا لنعرف أين يختبئون ؟ »

فضحك « سلفر » ضحكة عالية ، وتنحنح يمنة ويسرة كمن يريد

أن يضرب خصمه الضربة القاضية وقال :

— « ليختبئوا فى أعماق الجحيم ! مالنا ولهم ! لماذا جئنا نحن إلى هنا ؟ ولماذا تمرّدنا على أصحاب السّفينة ؟ » فقالوا كلّهم :

— « للعثور على الكنز والانفراد به دونهم ! » فقال « سلفر » :

— « بدأتم تعقلون . . . إذن خذوا . . . »

ومدّ يده إلى جيبه وأخرج منها خريطة الجزيرة والكنز ، وهى الخريطة الأصلية المصفرة الورق ، والموقّع عليها بالصّلبان الحمر التى تشير إلى موضع الكنز ، ورمى بها فى وجه زملائه وقال :

— « من منكم كان يستطيع الحصول على هذا ؟ ! »

فانكبّوا كلهم على الخريطة يفحصونها ، وأيقنوا أنها خريطة القبطان « فلنت» فمن قائل : هذا خطّه الجميل ، ومن قائل : هذه عادته فى كتابة الحروف ، ومن قائل : الكنز فى متناول أيدينا . وكنت أنا أكثرهم دهشة واستغراباً، فالخريطة هى التى عثرتُ عليها فى صندوق القبطان «بيل» فكيف فرّط فيها الطبيب « ليفزى » ونزل عنها إلى هؤلاء اللصوص؟ وعبثاً حاولت أن أفهم شيئاً من ذلك اللغز فلم أوفق إلى حلّ من الحلول .

وكأنما عزّ على « جورج » أن يهزم هذه الهزيمة المنكرة ، فأراد أن يتشبّث بآخر أمل من آمال النّصر فقال :

— « وماذا نفعل بالكنز إذا لم يكن لدينا سفينة ننقله عليها ؟ »

فقال « سلفر » محتداً :

— « إن تزد كلمة أخرى مزّقت وجهك تمزيقاً ! ... كيف ننقله؟ قل كيف ننقله . ولكن عقلك أصغر من أن يفكر ويقترح شيئاً مفيداً . أنتم أضعتم السّفينة وأنا وجدت الكنز ، فمن منّا أجدّ عملا ؟ كفانى جهداً ونصباً ! إنى مستقيل من الزّعامة فانتخبوا لها من تشاؤون ! »

فصاحوا كلهم فى صوت واحد :

— « "سلفر" ولا غير "سلفر" ! عاش القبطان "سلفر" ! عاش القبطان "سلفر" ! »

فابتسم « سلفر » وقال :

— « إنى أنزل عند رغبتكم راضياً ، ولكن حذار من معارضتى ، أسامع أنت يا "جورج" ؟ »

فخجل « جورج » من موقفه ، والتفت « سلفر » إلىّ وألقى فى يدى الورقة المعهودة وقال :

— « هذا لك يا "جم" . »

فأمعنت النظر فى الورقة . فإذا هى الصحيفة الأخيرة من الكتاب المقدّس ، يحتوى الوجه الأول منها على بعض الآيات ، فى حين كان الوجه الثانى أبيض . فقد استخدم الرّماد لتسويد الوجه المطبوع وكتبوا على الوجه الأبيض كلمة « مخلوع » .



٢٣

في صباح اليوم التالى هب القوم لاستقبال الطّبيب « ليڤزى » وتلقاه « سلڤر » على مدخل الحصن فقال :

ـــ « أهلا وسهلا بالطّبيب "ليڤزى" . إن مرضاك فى خير وعافية يا سيّدى الطّبيب ، ولكنّ بينهم زائراً جديداً فى ريعان الصبا ، قضى الليل معنا فقال الطّبيب :

ـــ « لعله "جم" ! » فقال « سلڤر » :

ـــ « هو بعينه ! » فقال الطّبيب :

ـــ « الواجب أولا . . . ثم المتعة والمرح . . . » .

ولقد سرّنى أن أسمع صوت الطّبيب « ليفزى » غير أن الخجل منعنى من أن أرفع نظرى إليه ، فبدأ يفحص هؤلاء الأبالسة فحصاً دقيقاً فى عناية وأمانة كأنه لا يشعر بأن حياته بينهم معلّقة بخيط رفيع ، وكان يسألهم عن أحوالهم ويريد أن يتحقق من أنهم تناولوا الأدوية التى تركها لهم ثم قال لهم :

ـ « إنى حريص على شرف المهنة ، وحريص أيضاً على إنقاذكم من حمى الملاريا التى تعيث فى أجسامكم . . . » واستدار إلى « سلفر » وقال :

ـ « عجباً منك يا "سلفر" وأنت الرجل الذّكىّ فيهم ، كيف رضيت أن تعسكروا حول المستنقع الموبوء بالحمّيات ! »

ولما فرغ من فحصهم وتقرير ما يلزمهم من أدوية وهم يصغون إليه إصغاء التلميذ الصغير فى حضرة المعلم قال :

ـ « هذا ما كان من شأن اليوم . والآن اسمحوا لى أن أتحدّث قليلا مع هذا الفتى » .

قال ما قال مشيراً إلىّ ، فانبرى « جورج » من حلقة القوم وهو يصيح فى غضب وحَنَق :

ـ « كلا ! لا نسمح ! »

فزأر «سلفر» زأرة مخيفة وهو يضرب بقبضتيه على أحد الصناديق وقال :

— « سكوت ! »

ثم أجال طرفه فى الحاضرين كالأسد الهائج فقال فى لهجة لطيفة :

— « سيّدى الطّبيب ! كنت أنا أفكر فى هذا لما أعلمه من عطفك على هذا الفتى ومودّتك إيّاه . . . إن لك يا سيدى الطّبيب فى نفوسنا منزلة كريمة ، فنحن نتناول أدويتك فى ثقة واطمئنان ، وأظننى وفقت إلى حل يرضى الجميع » .

وتابع كلامه موجّهاً إلىّ الخطاب وقال :

— « سنسمح لك يا " جم " بأن تتحدث أنت والطبيب " ليفزى " على حدة ، غير أنك ستعدنى وعد رجل شريف بأن لا تحاول الهرب ، وإنى أعرفك مع بيئتك المعدمة الفقيرة ، رجلا شريفاً نبيلا إذا وعد وفى بوعده » .

قطعت على نفسى الوعد الذى طلب ، فخرجت أنا والطبيب « ليفزى » إلى ناحية من الغابة تقع تحت سفح الحصن رافقنا إليها « سلفر » ثم عاد فجلس على مرتفع من الأرض قرب الحصن يراقبنا منه ويراقب فى الوقت نفسه زملاءه الثائرين الهائجين .

وقبل أن يتركنا ، حكى للطبيب ما فعله فى سبيل إنقاذى من قبضة زملائه المتوحشين ، وأنذره بالخطر الذى يحوم حولى وحوله معاً إن أنا حاولت الهرب .

ولم يكد الجوّ يخلو لى وللطّبيب « ليفزى » حتى بادرنى هذا قائلا

بلهجة كلها أسف وكآبة :

— « كيف طاوعك قلبك يا " جم " أن تهجرنا وتثير فى قلوبنا القلق والإشفاق عليك ؟ أليس من الجبن والخيانة أن تغتنم فرصة مرض القبطان لتهرب منّا ؟ »

أجهشت بالبكاء لدى سماعى هذا العتاب الأليم فقلت له :

— « رفقاً بى يا سيّدى الطّبيب ، فقد وبّخت نفسى توبيخاً قاسياً ، ولولا وجود " سلفر " هنا لكنت الآن فى عداد الأموات . . . إن الموت لا يرهبنى وإنما التّعذيب هو الذى يخيفنى وترتعد منه فرائصى » .

فعاد الطّبيب إلى لهجته الأنيسة الوديعة وقال :

— « إن قلبى ليرتجف فرقاً عليك . فتعال نهرب من وجوه هؤلاء الشّياطين » . فقلت له :

— « لقد سمعتنى أقطع العهد على نفسى بالرّجوع إليهم ! » فقال :

— « أجل ! أجل ! لقد سمعتك ، وإنى أتحمل عنك وزر هذا الإخلاف . فقلبى لا يطاوعنى أن أتركك بين هؤلاء الوحوش ! » فقلت :

— « لو كنت أنت يا سيّدى الطبيب مكانى ، أو كان العمدة أو القبطان لما نكث واحد منكم وعداً يقطعه على نفسه . . . سأفى بوعدى وسأبقى بينهم ، ولكن إذا شرعوا يعذبوننى أفأدلهم على موضع السفينة ؟ »

فغر الطبيب فاه مدهوشاً لمّا ذكرت له السّفينة . فقصصت عليه

قصتى ، وأخبرته عن مخبأ السّفينة ، فكان يستمع إلىّ فى صمت وذهول حتى إذا انتهيت من حديثى انتفض قائلا :

— « يا لحكم الأقدار ! لقد أنقذتنا يا "جم" فى كل مرّة تعرّضنا فيها للأخطار ، أفتحسبنا نقف مكتوفى الأيدى إذ نراك اليوم على شفير الهلاك ؟ فأنت كشفت عن المؤامرة ، وأنت عثرت على "بن جن" وأنت استوليت على السّفينة . . . »

ثم نادى « سلڤر » فخفّ إليه قفزاً فقال له :

— « نصيحتى لك يا "سلڤر" أن لا تتعجّل فى البحث عن الكنز ! »

فقال « سلڤر » :

— « إن حياتى وحياة هذا الفتى مرهونة بالعثور على الكنز . . . ولكن أستحلفك يا سيّدى الطّبيب بكل عزيز عليك لتخبرنى لماذا تركتم الحصن ولماذا أعطيتنى الخريطة ؟ » فقال الطبيب :

— « إنه سرّ لا أملك الإفشاء به وإلا كنت أفضيت إليك بما تطلب ، غير أنى أستطيع أن أعدك بشىء واحد وهو أننا إذا خرجنا كلانا سالمين من هذا الوكر وكر الذئاب ، فسأجتهد فى إنقاذك دون أن ألوّث سمعتى بالظنون والريب » .

فتألّق وجه « سلڤر » بشْراً وارتياحاً ، ونهض الطّبيب فودّعنى وودّعه بعد أن أوصاه بى خيراً . . .



٢٤

بقيت هنيهة مع «سلفر» فأثنى عليّ الثناء المستطاب ، ووصفني بالرّجولة والمروءة ، فقد فهم من إشارات الطّبيب «ليفزى» وحركات شفتيه أنه كان يغريني بالفرار ، وأني امتنعت على إغرائه . وعدّ ذلك مني فضيلة أنقذت بها حياته كما أنقذ هو حياتي ، وخلص من حديثه هذا إلى أننا يجب أن نتّحد اتحاداً وثيقاً لنتغلّب على الخطر الذي يرفرف فوقنا . وبينما كان يغمرني ثناءً ونصائح ، دعانا أحدهم إلى تناول الطّعام فلبينا النّداء ، وأخذنا مكاننا من القوم قرب نار موقدة يشوون عليها اللحم ، ويتقاذفون قطعه فيزدردونها ازدراد الوحوش .

أمسك « سلڤر » بقطعة من اللحم وبدأ يقضمُها والدهن يسيل منها على ذقنه وثيابه، ثم قال وهو لا ينى يقضُ ويقضم ويبلع :

— « أمّا الرّهينة فإنى أخشى أن تفلت من أيدينا ، لذلك قرّرت أن أربط الفتى بحبل أمسك بطرفه عندما نذهب إلى البحث عن الكنز فيجب علينا أن نحافظ عليه فهو أثمن لدينا من الذهب إذا تعرّضنا يوماً للطّوارئ . . . كلامى مفهوم . . . ويوم نعثر على الكنز وعلى السّفينة ونمخر بها عُباب الماء سنعطيه نصيبه من الغنيمة ، ونشكره على ظرفه وأدبه » .

فما اعترض أحد على هذا الكلام، فقد كانوا مشغولين بالأكل أوّلا ثم بالتّفكير فى الكنز . ولم تفتنى خطّة « سلڤر » وغرضه ، ولكنى رأيته يجازف مجازفة كبيرة ، فعند أول تصادم بينه وبين زملائه فأنا وهو هالكان لا محالة .

كنت أفكر فى أصحابى وفيما يكتنفهم من ألغاز ، فلماذا هجروا الحصن ؟ ولماذا نزلوا عن الخريطة ؟ ولماذا نصح الطّبيب « ليڤزى » لحارسى « سلڤر » بأن لا يتعجّل فى البحث عن الكنز ؟ كل هذه الأسئلة كانت تدور فى خاطرى فتزيدنى عماية وضلالا ، فلا عجب إذن إذا تناولت طعامى بيد مضطربة ونفس حزينة ، ولا عجب أيضاً إذا كان قلبى يخفق خفقاناً شديداً عندما مشيت بعد الطعام مع هؤلاء المجرمين الذين

جدّوا يبحثون عن الكنز .

فلو رآنا أحد ونحن نسير إلى هدفنا لدهش واستغرب من منظرنا ، كنّا كلّنا فى ثياب بحارة مشحونة بالبقع والقذارة ، وكانوا كلّهم ما عداى مسلّحين بل غارقين فى السّلاح : كان « سلفر » يحمل فى كل كتف بندقيّة وقد شكّ فى حزامه خنجره الطّويل العريض ، ووضع غدّارة فى كل جيبٍ من جيوبه ، وكنت أنا أتبعه مربوط الوسط بحبلٍ ينتهى طرفه فى يد « سلفر » . وكان الباقون من الرّكب مسلّحين أيضاً بالبنادق والخناجر ، وبالفؤوس والمعاول ، وكان منهم من يحمل كذلك أكياس الطّعام .

هبطنا كلّنا إلى الساحل حيث كان القاربان ، فركبناهما وانقسمنا فيهما إلى قسمين ، وسرنا بهما فى محاذاة الشاطئ حتى وصلنا إلى سفح التّل المسمّى « المنظر البعيد » فترجّلنا وبدأنا نصعد فى التّل . ولم نكد نقترب من قمّته حتى سمعنا أحد الرّجال ، وكان يسير بعيداً منّا إلى الشمال ، يصيح صيحات الفزع والرعب ، ويستغيث برفاقه . فهُرعنا كلنّا إليه ، ووجدنا عند جذع شجرة عالية جدّاً هيكل إنسان ممدداً على الأرض لم يبق منه إلا العظام وبعض الأسمال ، فوجمنا جميعاً واستولى على قلوبنا شيء من الفـرَق ، وبعد أن ثاب القوم إلى رشدهم وشجاعتهم قال أحدهم :

— « لا بدّ أنه أحد ضحايا القبطان "فلنت" ألم يكونوا ستّة لما نزل إلى هذه الجزيرة وخبأ الكنز وعاد إلى سفينته بعد أن قتلهم جميعاً ؟ »

سمع « سلفر » هذا الكلام وكان ينبش بعكّازه حول الهيكل العظميّ فقال :

— « لا أظنّ . . . فالقبطان " فلنت " لم يكن من أولئك الرّجال الذين يسرقون ضحاياهم . . . انظروا ! ليس حول القتيل أيّة قطعة من النّقود ولا أيّ سلاح من الأسلحة . أين خنجره ؟ أين غدّارته ؟! »

فجفل القوم من هذا الاستنتاج ، وقدّروا أن الجزيرة مرتع للأرواح الخبيثة التي تقتل الناس وتسرقهم ، واستمرّوا بضع دقائق في تردد وحيرة حتى أهاب بهم « سلفر » فاستأنفوا السّير على هدى الخريطة والبوصلة ، فوصلوا بعد قليل إلى قمّة الهضبة .

ومنذ أن وقعت أنظار هؤلاء الأوباش على الهيكل العظميّ خفتت أصواتهم حتى أشبهت الهمس ، وأصبحوا لا يسيرون إلا وهم متقاربون متساندون . وما كادوا يبلغون القمّة حتى سمعوا صوتاً خافتاً مضطرباً ينبعث من الغابة الممتدة أمامنا وينشد الأنشودة المعروفة :

« كانوا عدداً من بحارة
جلسوا من فوق التّابوت . . .
هاها ! هاها ! هاها ! هاها ! »

فما رأيت فى حياتى أحداً تضطرب أوصاله خوفاً ورعباً مثل اضطراب هؤلاء اللصوص فى تلك اللحظة ، فقد اصفرّت وجوههم ووقع منهم إلى الأرض مَنْ وقع ، وتشبّث الباقون بعضهم ببعض ، وصاح « جورج » وهو مستلق إلى الأرض :

— « إنه " فلنت " . . . يا للداهية ! »

وتحامل « سلفر » على نفسه ، وأهاب بشجاعته ، فقال لهم بكلمات متقطّعة :

— « لا تخافوا . . . تابعوا السّير . . . إن المنشد رجل من لحم ودم يريد أن يحاكى الحمام . لا تخافوا . . . »

فبدأت الشّجاعة تعود إلى قلوب سامعيه ، غير أن الصّوت انبعث ثانية من قلب الغابة وردّدت صداه هضبة « المنظر البعيد » ، فلم ينشد فى هذه المرة الأنشودة المعهودة بل نادى قائلا بصوت خافت :

— « قليلا من الماء يا " دربى " . . . أسرع . . . قليلا من الماء يا " دربى " » .

مسّت هذه الجمل قلوب رجال العصابة فانتفضوا انتفاض من مسّ تياراً كهربيّاً ، فبقوا عالقين بالأرض وعيونهم جاحظة تكاد تخرج من محاجرها . وبعد مدّة طويلة من انقطاع الصوت قال أحدهم :

— « لا شك فى وجود الأرواح هنا ! هيا بنا » . وقال « جورج » :

– « إن هذه الكلمات التي سمعناها هي الكلمات التي ردّدها القبطان "فلنت" قبيل وفاته » .

وكان « سلفر » غير مقتنع بوجود الأرواح ، ولكنّه كان يغالب نفسه فقد سمعت اصطكاك أسنانه إلى أن قال في شجاعة ظاهرة :

– « ما من أحد في هذه الجزيرة سمع بـ "دربي" ما عدانا ، فاسمعوا يا إخوان : لقد جئت أبحث عن الكنز ولن أحيد عمّا جئت من أجله . . . لم أخف قطُّ من "فلنت" وهو حيٌّ أفأخاف منه وهو ميت ؟ إن على مقربة منا كنزاً يقدّر بسبعمئة ألف دينار ، فهل هناك شجاع يدير ظهره إلى هذا الكنز ولا يكترث له بسبب بحار يدعى "فلنت" قد شبع موتاً وفناء ؟ »

فلم يحرّك هذا الكلام من زملائه ساكناً فقال « جورج » :

– « لا تعاند الأرواح يا "سلفر" ! » فقال « سلفر » :

– « قد يكون هناك روح من الأرواح . . . أسلّم معكم بهذا . . . ولكن هناك شيء مبهم غامض فقد كان للصّوت الذي سمعناه صدى رنّ في أطراف الهضبة ، وما عرفنا قطّ أن للروح ظلاًّ أو صدى . . . كل هذا أمر غير طبيعيّ » .

وكأنّ هذا الاستنتاج قد نزل على القوم برْداً وسلاماً فتنفسوا الصُّعداء وهبّ « جورج » يقول :

ــ « لا شكّ يا " سلفر " أنك صاحب دماغ مفكّر . . . هيّا يا إخوان نتابع السّير ونجتاز هذا الجسر الممدود أمامنا لنصل إلى غايتنا ونبتعد عن هذا المكان الذى تسكنه الأرواح . . . ظننّا أنه صوت " فلنت " فتولانا الرّعب. . . والآن وأنا أفكر تفكيراً هادئاً أجزم لكم بأن الصّوت ليس صوت " فلنت " فأنا أعرف جيّداً صوت " فلنت " . . . وهذا الصوت الذى أخافنا ليس غريباً عنى فقد كنت سمعته من قبل . . . إنه يشبه صوت . . . » فقاطعه « سلفر » قائلا وهو يُبرق ويرعد :

ــ « "بن جن" ! » فقال « جورج » :

ــ « هو بعينه صوت " بن جن " » فقال « ديك » :

ــ « المسألة واحدة . . . فلا " فلنت " ولا " بن جن " هنا لحماً ودماً ! »

فهزأوا جميعاً به لأنهم ما كانوا يحسبون حساباً « لبن جن » ولو روحاً من الأرواح . وهكذا دبّ فيهم النّشاط ، واختلجت الحماسة ، وعادوا يتناقشون ويتحدثون . ثم رفعوا معاولهم وفؤوسهم واستأنفوا التّصعيد فى الطريق المرسوم ، تقودهم إلى غايتهم الرّغبة فى الوقوع على الكنز الدّفين .

وصلنا إلى مخبأ الكنز ، فركض المتقدّمون منّا والفؤوس والمعاول فى أيديهم مستعدّين أن يهووا بها على الأرض ليكشفوا عن المدخل ، فرأيناهم قد توقفوا فجأة وصاحوا صيحة منكرة . فخف إليهم « سلفر »

وهو يقرع الأرض بعكازه، ويقفز قفزات المجانين ، فوقفنا أنا وهو بعد لحظات ذاهلين مبهوتين .

شاهدنا أمامنا حفرة كبيرة ليست قريبة العهد فالعشب كان قد نبت فى قعرها وجوانبها ، ورأينا فيها مقبض معول وألواحاً مبعثرة من ألواح صناديق الشحن ، وقرأنا على أحد تلك الألواح اسم سفينة " فلنت " مكتوباً بالحديد المحمى .

ومعنى ذلك أن المخبأ كان قد طرقه روّاد قبلنا وانتزعوا منه الكنز المدفون فيه .





٢٥

كانت خيبة أمل ليس من السهل وصفها ، وكانت ضربة قاضية أطاحت بالآمال والأحلام ، فلابدّ لمن يتلقّى مثل تلك الضّربة أن يظلّ مدّة مترنّحاً لا يقوى على الوقوف على قدميه . وهكذا كان القوم . . .

غير أن « سلفر » لم يكن من طينة أولئك الأغرار فاستعاد رشده وصوابه فى الحال ، وقدّر الأمور تقديراً صحيحاً ، ورمى إلىّ بغدّارة ذات طلقين ، وأشار إلىّ بعينيه أن الحقنى ، فرأيته قد أعمل عكّازه فى الأرض ومشى هادئاً مطمئناً وأنا أتبعه . ودار حول رابية حتى وصلنا إلى أعلاها وبيننا وبين جماعته هوّة عميقة ، فشملنى بنظرة كلها عطف وحنان ،

وفكّ وثاق وقال لى : « كن على حذر » فقلت له مداعباً :

— « غيرتَ مرّة أخرى معسكرك » فلم يجبنى بشىء فقد تعالت أصوات رفقائه فى تلك الثانية تلعنه وتشتمه ، فإنهم نزلوا إلى الحفرة ونبشوا فيها فعثر أحدهم على قطعة ذهبية واحدة فصاح فيه « جورج » :

— « انظر يا "سلفر" ماذا لقينا . إنها قطعة ذهبية أيها اللصّ المنافق . . . أهذه هى السّبعمئة ألف دينار ؟ أجبنى يا رجل المفاوضات بل يا رجل الكذب والنفاق ! . . . » فقال له « سلفر » متهكماً :

— « استمروا فى النبش فلعلكم تعثرون على كمية من البطاطس » !

فقال « جورج » مغيظاً محنقاً :

— « أتسمعون أيها الرّفاق ماذا يقول ؟ . . . إنه يتمنّى لنا أن نعثر على بطاطس . . . قلت لكم إن هذا الرجل خدّاع غدار ، كان يعرف الحقيقة منذ زمن طويل وكتمها عنّا . . . انظروا إليه تجدوا ذلك مكتوباً على جبينه . . . » فقال « سلفر » :

— « أتحدّثك يا "جورج" نفسك بالزعامة مرّة أخرى ؟ قلت لك إنك أبله بليد لا تصلح لأن تكون قبطاناً ولو على جماعة من البلْه الأغبياء . . . »

كانت كفّة « جورج » بلا ريب هى الرّاجحة ، فخرج المجرمون الخمسة من الحفرة ، وسرّنى أن رأيتهم يتّجهون غير الوجهة التى سلكناها



للوصول إلى قمّة الرابية ، فأراد « جورج » أن يؤثّر فى رفقائه فقال :

— « أيّها الرّفاق ! إنهم رجلان ، أحدهما مقطوع الساق طوّح بنا فى هذا المأزق ، والثّانى هذا الغلام الذى أودّ أن أشرب من دمه » .

ورفع يده يريد أن يرمينا بشىء ، فانطلقت فى تلك اللحظة من الغابة المجاورة ثلاث طلقات : طق . طق . طق . وقع « جورج » على أثرها فى الحفرة ، وسقط وراءه زميل له كان واقفاً إلى جواره ، أمّا الثّلاثة الآخرون فقد أطلقوا سيقانهم للرياح ، وهربوا لا يلوون على شىء .

لم يكد « سلفر » يرى « جورج » رافعاً يده حتى أفرغ فى صدره بأسرع من تردّد الطرف رصاص غدّارته ، وفعل فعله الطبيب « ليفزى » والخادم « جراى » و « بن جن » وكانوا كامنين فى الغابة المجاورة ، فبرزوا منها بعد إطلاق النار وسمعنا الطّبيب يصيح فينا :

— « هيا ندركهم ونمنعهم من ركوب القاربين . . . »

فجرينا جميعاً إلى الشاطئ ومعنا « سلفر » بعكّازه العجيب حتى إذا كنا فوق أحد المرتفعات قال « سلفر » :

— « لا فائدة من الجرى يا حضرة الطّبيب فالهاربون قد سلكوا طريقاً أخرى ، انظر إليهم إنهم هناك ، فإن شاؤوا أن يستقلوا القاربين فلا مندوحة لهم من المرور بنا » .

فجلسنا نستريح قليلا ، وأخذ « سلفر » يمسح العرق المتصبب من

جبينه وهو يقول :

— « أشكرك يا سيّدى الطّبيب فقد جئت فى الوقت المناسب لتنقذنى وتنقذ "جم" . . . أهذا أنت يا "بن جن" ؟ كيف حالك ؟ »

فقال « بن جن » :

— « بخير يا "سلفر" ! »

وبعد أن استرحنا توجّهنا إلى الشّاطئ لنستقل القاربين ، فقص علينا الطبيب فى أثناء الطريق قصة عجيبة كان « بن جن » بطلها الأوحد من البداية إلى النّهاية وهذا ملخصها :

كان « بن جن » فى أثناء طوافه بالجزيرة قد عثر على الهيكل العظمىّ فسرق ما حوت جيوب صاحبه ، وكان قد كشف أيضاً عن مخبأ الكنز فنبشه ، وكانت قبضة المعول المتروكة فى الحفرة هى قبضة معوله ، فاستولى على الكنز ونقله إلى مكان آخر من الجزيرة على دفعات متتالية قبل أن ترسو السّفينة « إسبانيولا » فى الميناء الذى رست فيه بنحو شهرين ، فلما قابله الطبيب بعد المعركة ، وعرف منه كل هذه الأمور ، ورأى أن السّفينة قد رحلت ذهب إلى « سلفر » وأعطاه الخريطة إذ لم يعد لها أى نفع كان ، ونزل له عن كميّات المؤن والزّاد لأن مخبأ « بن جن » كان مملوءاً باللحم المقدّد كما نزل له أيضاً عن الحصن لأنه اختار مكاناً قريباً من الكنز ليسهر عليه .

وفي صباح اليوم الذى رآني فيه رهينة أولئك اللصوص ، أدرك أن الدائرة ستدور عليّ عندما يكشفون مخبأ الكنز ويجدونه خالياً خاوياً، فترك العمدة إلى جانب القبطان المريض ، وطار إلى « بن جن » يطلب منه أن يكون قريباً من حفرة الكنز حتى يجيء إليه هو « وجراى » فكان ما كان .

وكنا قد وصلنا إلى القاربين عندما انتهى الطّبيب من رواية القصّة ، فأغرق أحدهما وركبنا الآخر واتجهنا جميعاً إلى ميناء الشّاطئ الشّمالى الذى كنت تركت فيه السّفينة، وعرّجنا في طريقنا على كهف « بن جن » فرأينا عند الباب شبحاً مستنداً إلى بندقيّة فكان العمدة، فلوّحنا له بمنديل أبيض، وملأنا الجوّ هُتافاً اشترك معنا فيه « سلفر » اشتراكاً فعالا بحنجرته القوية ، وتابعنا التّجذيف حتّى بلغنا الميناء فرأينا السفينة قد اقتلعها المد من مكانها ، فلو كانت الرياح قد هبت هبوباً شديداً لطوحت بها فى عرض البحر ، فصعدنا فيها ، وأصلحنا من أشرعتها ، وصنعنا مرساة جديدة طرحناها فى البحر ، وتركنا « جراى » فى السفينة للحراسة ، وعدنا إلى العمدة فخفّ إلى استقبالنا ، ولم يعاتبنى على فرارى ، ولكنه احمرّ وجهه عند رؤيته « سلفر » ينحنى ويؤدّى له التّحيّة فقال له :

— « إنك يا سيّد " سلفر " أفّاك أفّاق . طلبوا إلى أن لا أغلظ لك فى القول وسأكون عند طلبهم ، ولكن الأرواح التى أزهقتها ستتكفل

بشنقك » . فقال « سلفر » فى أدب وإجلال :

– « شكراً لك يا سيّدى العمدة » .

ودخلنا بعد ذلك إلى كهف « بن جن » فإذا هو كهف واسع ، تنحدر من شقوق صخوره عين ماء صاف . وكان هناك نار متقّدة جلس القبطان إلى جانبها . وفى زاوية من زوايا ذلك الكهف رأيت أ كاماً من السبائك الذهبية والنقود ، كان ذلك هو كنز القبطان « فلنت » الذى جئنا نبحث عنه ، والله يعلم كم من نفوس بريئة ذهبت ضحيّة ذلك الكنز وكم من لصوص وأوغاد لطخوا أيديهم بدماء الضحايا فى سبيل جمع تلك الآكام من الذهب !

وحانت منه التفاتة إلى « سلفر » فقال :

– « أنت هنا ؟ ما الذى جاء بك ؟ » فقال « سلفر » :

« عدت يا سيّدى القبطان أضطلع بمنصبى » .





٢٦

شرعنا فى صباح اليوم التالى ننقل الكنز إلى السّفينة ، وتطلّب ذلك منا جهداً وافراً فقد كان يجب نقله أولا إلى القاربين ثم إلى السّفينة فى حراسة قويّة من الكهف إلى السفينة، فقمنا بنقله على دفعات وفى أيام متوالية ، ولم تقع أنظارنا فى أثناء النّقل على الثّلاثة الهاربين فلعلهم سئموا القتل والقتال .

ولكم طاب لى أن أعبث وألعب بمحتويات الكنز من نقود منوّعة مختلفة الأشكال والأجناس والأحجام ، كتلك التى كنت شاهدتها فى صندوق القبطان « بيل » نزيلنا بالفندق ، ولكن كنز القبطان « فلنت »

كان أكبر وأضخم . ففضلا عن السّبائك الذهبيّة كان فيه قطع نقود إنجليزية وفرنسية وإسبانية عليها صور جميع ملوك أوربا فى المئة السنة الأخيرة ، وكان فيه أيضاً قطع نقود شرقية مزدانة بالرسوم وبالخطوط الشّبيهة ببيت العنكبوت فمنها المستدير ، ومنها المربّع ، ومنها المثقوب فى الوسط ، وعلى الجملة كان ذلك الكنز مجموعة عجيبة رائعة .

وفى مساء اليوم الثّالث ، كنت أنا والطّبيب « ليفزى » نتنزّه على رأس رابية تشرف على البحر فحمل إلينا الهواء صدى صوت بعيد أقرب إلى الصُّراخ منه إلى الغناء ، ثم انقطع الصّدى فقال لى الطّبيب :

— « إنها أصوات البحارة الثلاثة الهاربين » .

وكان هذا آخر العهد بهم ، غير أنه لما سارت بنا السّفينة رأيناهم قد خفّوا إلى الشاطئ يتوسّلون إلينا أن نأخذهم معنا فلم نر من الحكمة أن نجيبهم إلى توسلهم خشية تمرّدهم وعصيانهم ، وهَبْهُم لم يتمردوا فحبل المشنقة فى انتظارهم ، فليس من الرّأفة بهم أن ننقذهم من الجزيرة لنسلّمهم إلى الجلاد فحاولنا أن نفهمهم عن بعد أننا تركنا لهم كثيراً من البارود والأسلحة ، وكميات كبيرة من الزّاد والطّعام .

ثم نهضنا بعد ذلك نلقى النّظرات الأخيرة على الجزيرة ، فى حين كانت السفينة تخبّ بنا خبًّا حثيثاً . فما هى إلا دقائق حتى توارت الجزيرة عن الأنظار وتوارت وراء بساط البحر الأزرق .

وعند الغروب ، وصلنا إلى أحد موانئ المكسيك المزدحمة بالمراكب والسّفن . فطرحنا المرساةوصعد إلينا كثير من زنوج المكسيك وهنودها يبيعون الخضر والفواكه ، ففرحنا بلقاء هذه الوجوه الأنيسة ، وسرّنا فى المساء أن نرى المدينة تتألق تحت ستار من الأنوار بعد تلك الأيّام المظلمة الدّامية التى قضيناها فى الجزيرة .

وطاب للعمدة وللطّبيب أن يقضيا السّهرة فى المدينة فاصطحبانى معهما، ولم نعد إلى السّفينة إلا عند طلوع الفجر ، فاستقبلنا « بن جن » على رأس السلّم فيها، وبعد مقدّمات طويلة أخبرنا أن « سلڤر » قد فرّ على ظهر سفينة أقلعت من الميناء منذ ساعات ، وأنه هو قد ساعده على الفرار لينقذنا من هذا الرجل الشرّير الأثيم المقطوع السّاق .

وما زلنا فى سفر هانئ ممتع حتّى وصلنا إلى ميناء « برستول » فتقاسمنا الكنز ، وتصرّف كلٌّ بنصيبه حسبما شاء واشتهى .





طبع بمطابع دار المعارف